الرفاعى

العدّ التنازلى

« اليوم الثالث عشر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ الساعة ١٥٣٠ .. »

يمضى الطريق الى مركز السماء ، فى المقعد ذاته يجلس الرفاعى عاقدا يديه أمام صدره ، يتابع فراغ الصحراء وتنوع صفرة الرمال وبروز الصخور ، يصغى الى صوت المحرك الرتيب الذى استقر منذ فترة على ايقاع لا يتغير ، يزداد ابتعادا عن البيوت والزحام والضجيج ، آخر من رآهم قبل التوغل فى الصحراء مجموعة من الفلاحين أمام دكان بقالة صغير يقع عند نهاية آخر قرى مركز الصف المطلة على الصحراء .

قبل اقترابهم من القرية هدأ عبد المؤمن من سرعته . يعرف ما سيقوله الرفاعى لو اخترق الشارع الرئيسى بنفس الاندفاع ، أثناء ركوبهم الجيب التى تحمل أرقاما عسكرية يقف عند كافة نقاط الشرطة العسكرية . فى المرة الأولى أثناء عودتهم الليلية من صحراء دهشور بدا متعبا ، عند آخر نطاق الفرقة لم يهدىء عبد المؤمن من سرعته . ان العربة ذات اربعة أبواب ولا يركبها الا القادة ، اعتدل يومها قال فى صوت فاتر ، هادىء « قف » ، تقدم جندى الشرطة ، قدم اليه بطاقته « تمام يا أفندم » ، أصغى عبد المؤمن الى صوت احتكاك الحذاء بالارض الصلبة المغطاة بذرات الرمال عند أداء الجندى للتحية ، انطلق عبر الطريق الذى يدور حوله هضبة الاهرام ، ود لو ينهى الرفاعى ذلك الصمت ، استعاد بعض أحاديثه مع الجنود أثناء انتظاره فى الخلاء المعبأ بالنجوم وضباب بعيد فى أعماق الكون ، بحذر بدأ القيادة عند ما دخل فى شارع الهرم ، فى تلك الساعات المتأخرة يمتلىء الطريق بالسكارى والحوادث وأعمدة النور المنهارة والأضواء الملونة والعربات التى تحمل أرقام الجمارك وهياكل المبانى الخرسانية ، رائحة المزارع التى تتخلل البيوت . لا يدرى عند أى نقطة من الطريق فاجأه الصوت المفاجىء ذو المستوى الواحد ، « لابد أن تقف عندما يصبح الوقوف واجبا » بوغت وقال « تمام يا أفندم » ، عاد الصمت ، فى ميدان الدقى جاءه نفس الصوت « لو أنه لم يوقفك لطلبت مجازاته » ، أومأ برأسه

والصوت الهادىء يرسل فيه احساسا بالذنب وخشية لم يعهدها من قبل مع جميع من عمل معهم .

إن الرفاعى الآن يتذكر هؤلاء الفلاحين ، عند خروجه من المدينة يستعيد آخر من رآهم يسعون عبر الطرقات أو يخطون فوق الارصفة ، الملامح المرهقة ، الاستسلام الغريب ، الضحكة الضائعة ، والنظرة الولهى من عينى مجهول ، وشظايا عبارات متطايرة ، بيوت مسكونة بالاسرار والماضى ، دائما يخرج من المدينة عبر ثلاث نقاط ، طريق السويس المزدحم بالثكنات حتى الكيلو ٤,٥ أوشكت حركة العمران ان تصل الى هناك ، ثم طريق الاسماعيلية المحاذى لمطار القاهرة ، ثم هذا الطريق المؤدى الى بطن الصحراء الشرقية ، ان آخر الأشياء والمرئيات تمر به عند الخروج الى القتال ، آخر من تحدث اليه ، ملامح نادية ، آخر عبارات تبادلها مع الضباط والجنود الذين لم يخرجوا معه ، يذكر الآن آخر اشتباك فى صيف عام ١٩٧٠ ، تمتد الصحراء الآن صامته ، بحر تجمد منذ عصور سحيقة ، لكن هذه المسافات الشاسعة حبلى بحركة خفية ، اليوم يختلف الأمر عن خروجهم فى المرات السابقة ، انهم الآن جزء من كل ، لا يلتفت الى من معه لكنه يدرك الانطباعات ، حدة العقيد علاء التى توحى بأنه سيشترك فورا ، جلوسه بميل الى الامام ، وضع الملاكم قبل تسديد الضربة ، أبو الفضل الصعيدى وملامحه التى تعكس احساسا

بالانتظار ، مصطفى المتأهب دائما لتلقى الامر ، أبو الحسن وشبح ابتسامة دائمة قد تظهر فى أى لحظة ، ان الرفاعى يرى تلك الروابط الخفية ، تشد كلا منهم الى الآخر ، قبل العبور لملاقاة الحرب يصبح كل منهم أكثر احساسا بالآخر . أى كلمة تقال تلقى موضعا وثيراً فى آذانهم . أى لمحة ساخرة تفجر الضحك من أعماقهم . اثناء الانطلاق تتعانق أذرع غير ممتدة . وتتماس خطوط البصر المستقيمة ، بعد قليل سيواجه كل منهم الموت ، والموت يحوم فوق الجماعة ثم ينقض فوق الانسان الفرد ، الشظية لا يوقفها إلا جسم واحد ، يصبح الإنسان شديد الوحدة فى مواجهة الموت ، ان تجاورهم ، ومد جسور العواطف واستعادة الذكريات ، كل ذلك يحصنهم ضد اللحظة المؤجلة .

يتساءل المساعد حسن . .

ــ لماذا قال البيان إنهم بدأوا بالعدوان ؟

يجيب العقيد علاء . .

إنها اعتبارات دولية . .

يقول المساعد حسن . .

أتمنى لو قلنا إننا بدأنا الهجوم . .

يضم العقيد علاء أصابع يده ، يهزها من أعلى إلى أسفل ، يضيق الرفاعى عينيه بعد اصغائه الى هذا الحوار القصير ، ينظر الى تل رملى مرتفع عند خط السماء ، يدور ايريال ضخم لمحطة رادار ، يلتوى الطريق بحدة ، يتبع الاسفلت منحنيات الصحراء ، يهدىء عبد المؤمن ، ينظرون الى سيارات النقل الضخمة ، صناديق الذخيرة الرمادية ، فذائف هاون عيار ١٦٠ مللى ، كان الطيران الاسرائيلى يجىء الى مواقع هذه المدافع بمجرد حفر خنادق الجنود حتى قيل ان الطائرات بها جهاز خاص لشم رائحة الهاون ١٦٠ مللى ، وجهاز آخر لشم رائحة العمال الصعايدة بناة مواقع الصواريخ ، لا يذكر من قال « ربما كان ذلك تطبيقا عمليا لما يسمى بالاستشعار عن بعد » كانت الطائرات تجيىء من الاعالى كأنها أقلعت من مطارات خفية فى أعماق الفضاء ، يبرق معدنها المواجه للشمس كنصل الموسى ، تنزلق ، يختلط الاسمنت بالدماء وبقايا الطعام والملابس التى تثير الشفقة بعد انتهاء الغارة ، خرج ضابط من موقع مدمر ، ضرب بالألف رطل ، صرخ . . لماذا . . لماذا . . ؟؟ عيناه داميتان مشدودتان إلى السماء التى بدت بعيدة ، نائية ، لا تجيب ، نزل الرفاعى من السيارة ، لم يكن يصحبه إلا مصطفى ، خاضا فى الحطام ، وبقايا طعام ، وفردة حذاء قديم ، وعلب طعم محفوظة فارغة ، وأوراق محترقة ، وبقايا تليفون ميدانى ، صاح صوت من بعيد ، احذروا . . قنابل زمنية » ، زعق

الرفاعى ، « تعالوا . . إنها قنابل كاذبة » هز كتفى الضابط ، لم يتوقف عن التساؤ ل ، « لماذا . . لماذا » جاء جندى قصير القامة حذرا ، اقترب عامل صعيدى ، ظهر ثلاثة جنود خمن أنهم من الصاعقة ، انحنوا حتى تمكنوا من زحـزحـة كتلة الاسمنت ، حـادت عينـا مصـطفى عن النصف الآدمى المقطوع الصلة بنصفه الأسفل .

كأن ما جرى يمت الى بشر آخرين ، لكم تبدو تلك الايام نائيـة ، كانت الجبهة وقتئذ عارية ، يجىء الطيران فى مواعيـد لا تتغير امعـانا فى التحدى ، يختار الطيارون أهدافهم . يضربون عربة ويتركون الأخرى ، يقصفون موقعا ويتركون الآخر ، بينما تبدو انفجـارات قذائف المـدفعية المضادة للطائرات كبقايا قطن رخوة فى الفراغ .

الآن انتهى عرى الجبهة ، نبتت الصواريخ من كل الانواع ، مصوبة الى كل الاتجاهات ، قال ذلك اللواء ضاحكا منذ ثلاث سنوات « فى المساء لم يرصد العدو أى شىء وفى الصباح ركبهم الذعر والغضب ، لقد طرحت الارض كافة أنواع الصواريخ » ، يمضى طابور النقل ، يحاذى الميكروباس منتصف القول ، يزيد عبد المؤمن السرعة حتى يتجاوزه . فوق الصناديق بطاطين ومعاطف ، يجلس عدد من الجنود ، يحملون اسلحة أوتوماتيكية ، احـدهم يأكـل ، يشيرون الى راكبى الميكـروبـاس الأبيض ذى الأرقـام

المدنية ، ينحنى عبد المؤمن قليلا فوق عجلة القيادة ليوسع من دائرة ابصاره ، كلا الجانبين لا يدرى الى اين يتجه الآخر ؟، لكن التحرك فوق هذا الطريق ، فى مثل هذا التوقيت ، يعنى ان كلا منهم يتجه الى المعركة التى بدأت فى الثانية ، لم تسمع قذائف بعد ، لكن تبدو الحركة كالدماء التى تهرع فى الشرايين لتغذى قلبا ينزف ، فى المقدمة عربة نقل تجر مدفع هاوتزر مكشوف الفوهة ، عربة أخرى تجر مدفعا مضادا للطائرات ، يرتدى طاقمه الخوذات ، يحتل موقعه فوق المقاعد الصغيرة المثبتة الى القاعدة الدائرية ، تنأى صيحات الجنود ، ينحنى الطريق ثم يستقيم ، تبتعد الملامح والخوذات وتحية المتوجهين الى القتال ، يوشك الرفاعى أن يبدى ابتسامة ، منذ فترة بعيدة لم يخرج مع الرجال إلى الضفة الأخرى .

يدرك الآن اثناء الصمت الآدمى الذى يغطى على ازيز المحرك ان الكل يسبح فى شعور الرفقة ، يهدىء عبد المؤمن من سرعة السيارة ، يقترب من مدق جانبى ، ترتفع مقدمة الميكروباس ، يتغير ايقاع العجلات ، فى المرآة يلمح أبو الفضل منحنيا ، أبو الفضل لا يستعيد الآن ذكريات لقاء أخير مع أسرة ، لا أصوات اطفال تتردد فى ذاكرته ، أو رائحة خبيز بيتى تنتظره فى أجازة قادمة ، انه يصحب الآن كل ماضيه ولا يدع وراءه أى مخلفات للذكريات أو الحنين ، يحمل حياته كلها على كتفيه ويجىء بها ، يلتفت اليه الرفاعى مناوشا . .

« اليوم للصعايدة » . .

تطلعوا إلى ابو الفضل ، وسرى بينهم عبير أخوة غامض . . الصعيد كله يعيش فى انتظار هذا اليوم ، بعد الهزيمة قامت النيران كبئر بترول بلا قرار

يضحك أبو الحسن

أنه لا يفكر الا فى آبار البترول . .

تغرب التقطية على جبين أبو الفضل ، يبدو الآن هادئا كنداء خافت فى ليل متقدم . . يقول العقيد علاء . .

أبو الفضل لا يرى فى مصر الا صعايدة ، الناس فى رأيه اما صعايدة أو أجانب . .

يتدخل عبد المؤمن . .

طبعا يا أفندم . . الصعايدة اجدع ناس . .

يتساءل أبو الحسن . .

الا يوجد مكان للاسكندرانية ؟

يقول العقيد علاء . .

سيادة العميد وزع صباه وشبابه على كل البلاد .

يهز الرفاعى رأسه مبتسما . .

كنت أعد نفسى لقيادة المجموعة . .

منـذ الآن لن يستقر الصمت ، تسـرى حميمية ، صـوت مصطفى هادىء سريع .

لكن سيادة العميد الرفاعى من مواليد بلقاس . .

يقول العقيد علاء . .

هذا صحيح . . ولكن كل بلد أخذ منه مقدارا . .

يقول ابو الفضل . .

مجموع ما قضاه فى الصعيد يفوق ذلك بكثير . .

يضحك أبو الحسن . .

لكن أى المناطق تعتبر صعيدا . . اذا ذهبت الى اسيوط وقلت لهم انا من بنى سويف . . قالوا لك انت من بحـرى . . نفس الامر اذا ذهب الاسيوطى الى سوهاج والسوهاجى الى قنا . .

يبتسم أبو الفضل . .

الصعيد الحقيقى يبدأ من سوهاج . .

لا يدع أبو الفضل فرصة إلا ويتحدث عن الصعيد الذى عرب عنه طفلا . من يسمعه يتحدث عن قريته ، يصف طرقاتها ومنحنياتها وقعدة العصارى فى الرحبة ولون البلح عنـدما ينضـج فوق النخيـل ثم تساقط الثمرات فوق الأرض ورائحة الخبيز فى الـظهيرة وسـوة الاثنين والمنـدرة

ومخزن الغلال وأحاديث الرجال الليلية ، من يسمعه يخيل إليه أنه عاد بالامس من أجازة هنية قضاها يتمتع بحنان الام ويصغى الى دعوات الاخت ويلتحف بليل اسرى دافىء قبل عودته إلى الوحدة ، لا يؤلم الرفاعى الا رؤ ية ابو الفضل وحيدا عند نزول زملاءه الى المدن والقرى فى أجازاتهم ، دائما ينحاز اليه فى أى وقت نقاش دائر ، مرات عديدة حذر العقيد علاء من توجيه أى عبارة اليه قد تخدش احاسيسه ، تمضى السيارة مهتزة أو مستقرة ، الى الخلف زوبعة أثارتها العجلات ، تجىء عربة جيب من الاتجاه المقابل ، ويضغط عبد المؤمن الكلاكس ثلاث مرات ، يجيبه كلاكس الجيب .

« أهذه شفرة »

يرد أبو الحسن بسرعة . .

« لا ياأفندم . . هذه عزومة مراكبيه »

على الطرقات المتباعدة يحيى السائقون بعضهم ولا يرى الواحد منهم الآخر . تقاليد مجهولة المصدر ، تبدو عربة استطلاع ، يطل من الفتحة الرئيسية ضابط ، لم يستطع التحقق ن الرتبة ، يرتدى خوذة ، لا يوجد مقاتل فى المجموعة يرتدى خوذة ، هل نذهب إلى العدو محتمين بالخوذات ؟ الخوذة ثقل اضافى ، قال عصام يوما ان فائدتها الوحيدة منع

العقل من التفكير ضحك الرفاعى ، تبدو من بعيد الانشاءات السريعة القليلة لهذا المطار الذى أنشىء بسرعة فى أواخر الستينيات ، صناديق خشبية ملقاة فى العراء ، لفات من الاسلاك الشائكة ، أكياس بلاستيك فارغة ، خطأ يجب التنبيه اليه ، لو الصناديق فارغة ستسهم فى تأجيج حريق قد ينشب مع أى قصف ، ولو بها معدات فتلك خسارة ما بعدها خسارة ، يقترب مطار الاقلاع ، يمكنه تمييز الدشم الخرسانية ، لم يعرف بعد ، هل سيجد الطيارين الذين اعتاد الخروج معهم ، هل سيجد النقيب سيد أو سيد بلاعيم كما يسميه رجال المجموعة لتعدد مرات طيرانه فوق حقول البترول ببلاعيم ، كذلك الرائد نبيل ، هؤلاء الذين اخترقوا به تحصينات الليالى السود ، وثغرات دفاع العدو الجوى ، قبل مغادرتهم حضر المجموعة فى الضواحى ، اجتمع بالرجال ، فى البداية استعاد ايام ما قبل وقف اطلاق النار ، قال ان اليوم يومهم ، والسنوات التى انقضت ما هى الا مقدمة لهذا اليوم ، قال ان الشغل الحقيقى سيبدأ من اليوم ، قال لابد من الحاق أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو ، سيمضون اليه فى المواقع التى يعرفونها جيدا ، وتلك التى يجهلونها ، وأن يستعدوا لتلبية أى واجب قتالى يطلب منهم ، قال ان الوضع يختلف اليوم ، انهم لا يعبرون الى الشرق بمفردهم انما هم الآن جزء من كل ، قال ان خطة الهجوم على بلاعيم مصدق عليها من القيادة ، يجب تحويل كل شبر الى جهنم . أشار

الى نموذج مجسم من الجبس ، تطلع الرجال وكأنهم ينظرون من خلال منظار يصغر الاشياء مياه الخليج ، الصهاريج الضخمة المحاطة بسواتر دائرية من الطوب الأحمر ، مواقع المدفعية المضادة ، محاور الطرقات الرئيسية ، مبانى الادارة ، ميس الطعام ، مواقع الحراسة القريبة من الخليج ، أشار الى النقاط المحتمل أن يدفع العدو اليها بكمائن ليلية . قال ان الهدف هو الصواريخ وكل عدو يتحرك هنا أو هناك ، كل عدو حى ، سيتم الهجوم بطريقة من طريقتين ، قال انه يود لو سمع أى ملاحظات ، طافت نظراته تستحث ، تشجع ، أمامهم سبع عشرة دقيقة للتحرك ، من غير المسموح به اطلاقا مناقشة أى تفاصيل بعد مغادرة هذه القاعدة ، ممنوع بشكل مطلق أى استفسار هامس أو جانبى ، كل التعليقات حتى المرحة يجب أن تقال هنا ، تساءل أبو الفضل عن المدى الذى يمكن أن تهبط اليه الطائرات فى حالة تنفيذ الخطة الاولى ؟ قال الرفاعى انه اقل ارتفاع ممكن ، جالت عيناه مرة اخرى فى الملامح ، بعد لحظات من الصمت تناول لفافة صور ، فردها على امتداد جسده ، بدأ أصبعه يقوم بالاشارة ، هذه الصور التقطت بواسطة الاستطلاع الجوى منذ اثنين وسبعين ساعة ، قال ان كل ما استجد منذ اعداد الماكيت نقطة استطلاع جوى وموقعها هنا ، تقدم كل منهم الى الصور ، تفحصوا الخطوط والظلال ، فى الدقائق القليلة المتبقية اتم جولته السريعة المعتادة والتى يسمونها « اللمسات النهائية » .

يتوقف الميكروباس بالقرب من مبنى منخفض ، للحرب هنا ملامح وتجاعيد ، يقفز الرفاعى ، رصد نظرة حادة فى عينى العقيد علاء ، القتال عند علاء يعنى الالتحام ، والمباغتة ثم أطفاء البريق فى العيون . كل منهم ادخر كثيرا من الصرخات داخله طوال الاعوام الثلاثة الماضية ، قال الرفاعى لعلاء بعد العودة من لسان التمساح أود ان تصغى إلى نفسك يوما ، من يرك أثناء الاشتباك لا يتخيل انك طبيب وطبيب اعصاب بالذات ، قال علاء ان الطبيب يداوى الجراح المحدودة اما نحن فنعالج جراح التاريخ ، اثناء القتال يشتبك بالواقع والمصير واللحظة ويسدد الطعنة قبل ان تناله الطعنة المقابلة ، يتلاشى تماما ، يتعايش فيه الوعى واللا وعى ، الرفاعى يرصد كل التفاصيل ، لا يفلت منه أى جزء من الموقف ، لا الملامح ولا نهاية مسارات الشظايا ، لا يفقد الرؤ ية فى سحابات الدخان غليظة القوام ، فى اللحظة يتنبه للخطر المباغت الذى يطل فجأة من قلب الدوامات واختلاط الرواح بالمجىء ، عندما يتبادل الجنوب والشمال مواضعها وتصبح الدائرة خطا مستقيما والواحد يغدو اثنين ، قال علاء ان القتال الحقيقى هو : الالتحام بالسلاح الأبيض ، ليس القصف بالطيران أو المعارك التصادمية بالدبابات .

هيا يا وحوش . .

يتنتحى بالعقيد علاء جانبا ، يتساءل علاء . .

ـ يعنى هل تعذر توفير الجهد المطلوب ؟
ينظر اليه الرفاعى معاتبا . .
ـ لا داعى للحدة . . هذه الحدة ستحتاج اليها بعد قليل . .
صمت لحظة . .

لا تنس أن الحرب مشتعلة على طول الجبهة . . نحن لا نعمل بمفردنا . .

يبدو أن العقيد علاء لم يقتنع ، لا يريد ان يسب ويلعن فى هذا اليوم كعادته عندما يواجه أمرا لا يعجبه ، يتقدم الرفاعى باتجاه ثلاث طائرات هيلوكبتر ، أزيح عن كل منها غطاء التمويه ، يصافح الطيارين ، يتحدث اليهم ، يرتدى قفازه الجلدى الخفيف .

ليتأكد كل منكم من ضبط زوايا المدافع . .

تحين اللحظة التى سيفترقون فيها ، يثب العقيد علاء إلى الطائرة رقم ٢ ، فى أثره المساعد أبو الحسن . . قبل ان يختفى أبو الفضل فى جوف الطائرة ينظر الى الرفاعى ، ما يمكن قوله كثير لكن الالفاظ شحيحه ، الرفاعى مطمئن الآن كأنهم لم ينقطعوا عن الخروج معا طوال الاعوام الثلاثة الماضية ، يشير الى الجاويش مصطفى . .

ـ هيا يا وحش . .

يحتوى بعينيه المطار والمنشآت والرجال ، ونور أحمر يلمع فى مؤخرة طائرة تقف بعيدا عن دشمتها الخرسانية ، وهيكل خشبى لطائرة قتال ، وإيريال رادار يدور فوق مرتفع ، وثلاثة رجال يحملون صندوقا يحوى شيئا ما ، وجندى يقف وحيدا ، تذكر طفلا يطل من شرفة بيت من طابقين ، ورجلا يختفى عند منحنى طريق ضيق مفروش بالظلال ، بالقرب من مبنى ادارة المطار يقف عبد المؤمن ، يعرف انه لن يظل وحيدا ، سيتعرف الى الآخرين بسرعة ، سيبادلهم الحديث ثم يحكى له ما جرى ، يغلق الباب الخلفى للطائرة ، يسرى تيار نحيل من الحركة ، كم مرة طارت ؟ كم مرة ستطير ؟ الى أى الجهات وصلت ؟ يشد على كتف مصطفى ، يتجه الى كابينة الطيار ، يجلس فى مقعد المساعد ، يضع السماعتين فوق اذنيه ، سيقوم بمهمة الملاح ، انه يحفظ ملامح الطريق والمعالم الارضية ، خاصة بعد عبور الخليج والطيران فوق سيناء ، ليست المرة الاولى التى يتجه فيها الى بلاعيم .

يهتز الجسم المعدنى فى ثباته ، فوق الارض يبدأ ظل المروحة الرئيسية فى الدوران ، يضغط الطيار ازرارا عديدة فى اللوحة المزدحمة بالمؤشرات والعدادات بنظرة جانبية يرمق وجه الطيار الذى يخرج معه لاول مرة ، ملامحه ثابتة كأنه على وشك الشروع فى ابتسامة ، يذكر الجرجاوى ، الجندى الذى لا يعبس أبدا ، كلما نظر اليه يراه مبتسما ، يبدو راضيا عن

الدنيا ، يشعر بابتسامة اثناء الخطو الحذر فوق الارض هناك ، يجذب الطيار العصا القصيرة ، تميل مقدمة الطائرة ، انها معلقة الآن ، تنتظم الحركة ، تتسع المسافة بين الارض والطائرة ، يتضاءل حجم المنشآت ، يلمح رجلا يلوح بيده ، يرفع يده بتلقائية على الرغم من ان الآخر لن يلمح ردة ، تدور الطائرة ثم تستقر باتجاه الشرق ، الشمس خلفهم الآن ، ما تزال النجوم بعيدة عن السماء ، بعد ربع ساعة سيجتمع الناس حول موائد الافطار ، كل ما يقومون به الآن وما سيمرون به سيصبح بيانا عسكريا ، اذ يقرأ عن المعارك التى خاضها الآخرون لا يخدعه اختزال السطور لما جرى ، يجسد ألم الجراح ولحظة الاشتباك والصيحات الليلية والرعب الانسانى ، مروق الطلقة بين الجندى والجندى والألم الخاطف المركز السريع الذى ينتهى فجأة ثم تنقذ الشظية إلى ما وراء الاذن ، الحرب هى ان تنجح فى ادخال هذه الشظية الى جسم العدو ، سواء صدرت الشظية عن طلقة مسدس أو قنبلة مدفع أو دانة دبابة أو صاروخ معقد ، الطرق تتعدد ولا تحصى لكن الموت فى النهاية واحد ، لا يوجد من يصحب معه قدرا من الدنيا اكثر من الآخر ، فى لحظة معينة من هذا الليل سيرسل عشرات الشظايا ، لابد ان يوجعهم ، ان يسدد الضربات الصحيحة ، ان يحدث آثارا لا يمحوها الزمن بسهولة ، لو رحل الى الأبد سيبقى بين الاحياء بقدر ما يحدثه من أثر فى العدو ، كل شىء مدرك بالزمن ،

والملمـوس يخسر السبـاق معه دائـما ، تلك اللحظة الآن أصبحت الآن ماضيا ، المكان الذى تشغله الطائرة يتغير ، والفراغ ليس بواحد ، المهم تسديد الضربة ، كل شيء يفلت ويمرق ، لكن يجب الا يمر بالعالم صامتا ، كثيرا ما قال للعقيد علاء وللشهيد عصـام أن القتال كـأى شيء تتعهده وترعاه ، كلما بذلت معه جهدا جنيت منه أكثر ، لم يتجه الى العدو يوما ليسـدد ضربـة خفيفة ، محـدودة الأثر ، انمـا يوحـد كل مـا للرجال من قدرات ، ليفجر كل ما يستحـوذون عليه من طـاقات ، يـود لو يشمـل الانفجار عناصر الطبيعة نفسها ، يفجر القوانين التى تحفظ ثبات الارض تحت العدو ، وسيولة البحر ، والهواء الصالح للتنفس ، يود لو خرج من اسر جلده وجاء بالنيازك الضالة فى الفضاء وخلق الوسيلة لتوجيه الشهب الحارقة وسددها الى قلب العدو ، يضنيه التفكير فى اختيار الهدف ، ثم تضنيه الرغبة فى تفجير كل ما يتعلق به من موجـودات ، يتجه الآن الى العدو بعد توقف قسرى دام ثلاث سنوات ، ضاق بالحركة اليومية الرتيبة ، اضنته آلام القرحة ، الليلة سيزرع لسانا من اللهب يصهر سواد السماء والنجوم ويحجب الكواكب البعيدة ، نيران تفـح حرارتهـا فتعم وتشمل وتقول بالحرق واللسع ان فى هذه البلدة رجالا ، كل ما مضى من سنين وشهور ولحظات معاناة مقدمات لما هم مقبلون عليه .

تعبر الطائرة سلسلة جبال الجلالة ، سيمكن رؤ ية مياه الخليج بالنظر بعد ثوان . .

لنهبط الى ارتفاع عشرة أمتار . .

إن اصواتا عديدة تتداخل فى السماعات ، المطار ، الطائرات فى السماء ، القواعد ، الصواريخ ، أصوات مجهولة واشارات غامضة ، طنين كونى ، ستطير الهليوكبتر بمحاذاة الخليج حتى رؤ ية الاشارة الضوئية ، يتابع الطيار عداد الارتفاع . .

إن الطيار يرمق الرفاعى بسرعة ، فى اللحظات الأولى رأى ضابطا هادىء الملامح يقف ملامسا خصرة براحتى يديه ، هل هذا هو الرفاعى ، كثيرون من طيارى الهليوكبتر اعتبروا الطيران معه عملا يميزهم عن الآخرين ، عندما ابلغوه قالوا له ان الطلعة اليوم رفاعية ، ضحك ، قال هذه بداية جيدة للحرب ، يسأل نفسه متى الم الرجل بهذه التضاريس ؟ كثير منها سكان الصحراء انفسهم الذين يعرفون طوال حياتهم دربا أو دربين ، أنه يعرف اتجاهه ، لا يدرى متى تسرب اليه هذا الاحساس بالثقة ؟ هل بدأ لحظة دخول الكابينة ؟ لحظة تأمله لملامحه الهادئة ؟ أصابعه الطويلة النحيلة المغطاة بالقفار والحذاء الأسود ذى الرقبة الذى يغطى ساقيه ويلملم بنطلونه ، حوله تلتف خيوط النايلون التى يستخدمها رجال

المظلات ، فى صوته ثقة وفى ملامحه ود ، وعندما يجلس يسرى هذا الشعور الرجولى الذى يعم المقاتلين وهم علىى وشك القيام بعمل قتالى ، هذا التضامن ، والمرح المستور الذى يخفف وطأة ما هو منتظر ، هل شعر بالثقة بعد تلقيه أوامر الرفاعى الواثقة التى تعكس معرفة صاحبها بالطريق . . انه يتابع الأرض ، الصمت اللاسلكى تام الآن بين الطائرات الثلاث .

نقطة ضوء فى بحر العتمة . .

يلتفت الى الطيار ، الملامح تبدو على ضوء العدادات الصغيرة فى لوحة القيادة ، يشير بيده الى الأمام ، آخر نقطة أرضية ترمقهم منها عيون الأصحاب والأقارب ، انه يرى الطائرة بعيون الواقفين هناك ، يضيئون لارشادها الى الطريق الصحيح ، من المؤكد أنهم قفزوا وصاحوا للرجال الماضين الى قتال العدو على الرغم من ثقتهم بأن من فى الطائرة لن يسمعوهم، فى صيف عام ١٩٦٩ مرقت ثلاث طائرات ميج ١٧ فوق مواقع مدفعية الهاون القريبة من مياه القناة ، رؤية طيراننا فى حد ذاتها وقتئذ تثير الحماس والأمل ، صفق الجنود وصاحوا مهللين ، ورمق ضابط الموقع الشاب الذى مد ذراعه محييا ، بعد ثوان جاء صوت القصف المكتوم البعيد ، لحظات ثم تتابعت الأصداء المعدنية لانفجارات المدفعية المضادة للعدو ، أظلم وجه الجنود ، بدا الضابط الشاب مكتئبا ، فجأة مرقت طائرتان على ارتفاع

منخفض جدا ، اتسعت العيون ، سادت خنادق المواصلات وحشة ، أين الثالثة ؟ سؤال ردده الصمت ولم يجرؤ أحد على نطقه ، أدار الضابط التليفون الميدانى ، سأل المواقع القريبة ، غير أن أحدا لم يرصد الميج ١٧ أثناء عودتها ، بعد أربع دقائق صرخ أحد الجنود أطلت الرؤوس تتابع الطائرة الجريحة التى راحت تتقدم باتجاه الغرب تجر وراءها ذيلا من الدخان ، ارتفعت الصيحات ، وكأن الطيار أحس بما يجرى فهز جناحى الطائرة محييا .

إنه يشعر الآن بابتعاده عن الأرض الصلبة ، اللون الآن أكثر قتامة ، سيخف تدريجيا كلما اقتربوا من البحر ، يستعيد أدق التفاصيل ، لم ينس شيئا ، يلمس ذراع الطيار الأيمن المواجه له ، يشير الى اليسار ، هل يختلف احساس الانسان عندما يطير فوق الماء ؟ الآن ايقاع الزمن أدق ، يشير إلى اسفل ، تهبط الطائرة مترين ، سيلتقون بسيناء وهم على ارتفاع ثمانية أمتار ، يصغى الى صوت الطائرة ، الى الليل ، ينظر الى عقارب الساعة الفوسفورية ، يتوغلون داخل سيناء ، خمس دقائق ، يشير الى الطيار ، تعود أضواء الطائرات الخارجية ، تستدير المقدمات ، يهم بالقيام ، بشير بيده ، يضيىء الطيار الكشاف الرئيسى ، يغادر الكابينة ، مصطفى يفتح الباب ، يتمنطق بحزام القنابل ، يتناول المدفع الذى تسميه المجموعة بالرفاعى ، أمريكى الصنع عيار ٥٧ مللى ، حصل عليه من داخل احدى

الدشم بلسان التمساح ، الباب الجانبى مفتوح ، تبـدو الطائـرات الآن وكأنها قادمة من داخل الأراضى المحتلة ، اذا لم يكتشفهم العدو فسينزلون فى المطار الصغير الممهد لاستقبال الهليـوكبتر ، عنـدئذ يبـدأ الفتك بمن يواجهونه منذ لحظة خروجهم ثم يشقون طريقهم الى أقرب المستودعات وتفجير الصهاريج ، حتى الآن لا تلتقط أذناه أى أصوات غير عـادية ، النجوم تتمايل فى السماء ، تتجه الطائرة الى اليمين ، يمرق شريط أبيض نحيل الى أعلى ، حرارة تلفح وجهه اذن لن تلامس أقدامهم الأرض ، تنحنى الطائرة ، تستدير حول الموقع ، الصهاريج تبدو دوائر ضخمة فى السواد ، يحرك مصطفى فوهة مدفعه فى أكثر من اتجاه ، تمتد ذراع الرفاعى ممسكة بقنبلة يدوية ، يحومون حول فوهة فرن ضخم ، تتفجر الصواريخ بغزارة ، كأن الدنيا تمطر شظايا ولهب بالمقلوب ، من الأرض الى السماء ، مدفع الرفاعى يرتد كلما شيع قذيفة ، تختلط الأصوات والانفجارات وتهب الى أعلى كرة من النيران كبالون ضخم من اللهب انتفخ فجأة .

اليوم الثانى عشر
٧ أكتوبر ١٩٧٣ . .
اليوم الحادى عشر
٨ أكتوبر ١٩٧٣ . .

. . يواجه البحر ضاما شفتيه ، تتقدم الأمواج وتتراجع كتنفس بطىء غامض للكون ، فوق الصخور الوعرة حمراء اللون يتمدد الرجال ، طلب منهم أن يستريحوا ثم ارتقى الصخور التى تشبه القباب الناقصة المتصلة ، امتداد البحر حتى خط السماء يحوى تحديا خفيا ، هل يصبح المبصر كالأعمى فى مواجهة هذا اللانهائى ؟ ما حان دون الوصول الى الهدف قوانين خفية ، تعلو بالموج ، وتزيد سرعة الرياح ، وتجعل من أثقل القوارب أجساما خفيفة ، عندما قال له وسام ان البحر عال فى هذه الليلة لم

يثنه ذلك عن قراره ، ألم تعلمه التجربة انها أفضل الظروف لمفاجأة العدو ، فى مثل هذه الليلة لا يتوقع انسان مجىء انسان ، سبق لهم أن تعاملوا مع بحر مماثل وأمواج أشد عنفا ، إنه ينظر إلى البحر الآن ، يوشك ان يتحدث بصوت عال ، يضيق بضياع يوم آخر ، يصغى الى صوت البحر القادم من كل اتجاه ، يتأمله بينها يمضى البحر الى كل الزوايا والأركان ، خصمان تنازلا طويلا ثم وقف كل منهما يرقب الآخر قبل استئناف القتال ، عندما انقلب القارب الرابع أمر بالوقوف ، طافت العيون بالعتمة ، تشابكت الصيحات ، ارتفعت أيد ممسكة بأيد وصواريخ وصناديق ابتلت ، رأى الرفاعى قسوة الليل ، حمولة أربعة قوارب فى ثلاثة فقط ، لن يواصلوا الطريق الا إذا جاء التمام من كافة القوارب ، الجندى فرغلى مفقود ، راح يوغل بنظرة فى البحر الوعر ، يعرف ما جال بخاطر الكثيرين ، لكن هل يدع أحد رجاله فى هذه المتاهة من الموج والقرش وأنواع أخرى من الهلاك لم يعرفها الانسان ، لتتخذ القوارب تشكيلا دائريا ولتبحث فى الدائرة المحصورة ، الجهد المبذول مروع ، كأنهم يبحثون فى أعماق النجوم السحيقة عن فرغلى ، لكن كيف يستمر وأحد الرجال تعتصره هذه المتاهة الجبارة ؟ اذا كان من المحتم ان يرحل الى الأبد ، فليمض هناك فى شرم الشيخ ، فى مواجهة العدو ، لكن ماذا فعل الآن حتى يغوص الى لب الأعماق ، لتبذل كل جهود المجموعة للعثور عليه انه لم يقم بعمل بعد ، لم

يحمل صاروخا ولم يطلق مدفعا ، فى لحظة خيل اليه ان الكرة الأرضية مالت عن وضعها الطبيعى ، أدركه دوار والبحر يأبى البوح بمكان فرغلى ، حوالى الساعة الثانية وعشر دقائق جاء بلاغ من القارب رقم (٢) . . تم الانقاذ . استقام الاتجاه ، بدا له انه من الممكن الوصول الى الهدف قبل الفجر ، يتم نصب الصواريخ ثم يرى انطلاقها من عرض البحر ، لا يهمه طلوع النهار عليهم فى البحر ، المهم انطلاق الصواريخ ، وقبل ذلك كله قهر العتمة ، وشراسة البحر ، لم يره فى مرات خروجه العديدة بمثل هذه الغلظة ، أقام الليل أمامهم حواجز من العتمة والضباب الأسود الكثيف ، علا الموج حتى بدت القوارب وكأنها تسير فوق بعضها فى بحر من ثلاث طبقات ، ثم تتبادل الأوضاع أعلى ، أسفل ، جز على أسنانه ، حوله جدران شاهقة من الماء ، فى لحظة تبدو السماء عالية ، نائية جدا ، لا يدركها بصر ، ولا تلوح فيها نجوم ، فى لحظة تالية يعلو القارب ، يشعر كل من فيه انه معلق ، لا جاذبية تشده ، ولا ثقل يحفظ اتزانه فى لحظة أخرى تبدو القوارب وكأنها تدور حول نفسها ، قبض بشدة على عجلة القيادة ، وأصغى الى كل ما يجيئه من أصوات عبر السماعات ، لمح ضوءا خافتا فى جوف العتمة الكونية ، بدا قريبا ، ثم بعيدا ، اختفى ثوان ، ثم عاد الى الظهور ، علمه اقتحام الليل ، والعبور الى الارض كل ما فوقها معادلة ألا تهتز أعصابه من المفاجأة ، لكن كثيرا ما تلفت نظرة الظواهر

العارضة ، تستوقفه طويلا عند استعادتها بعد انقضاء زمن حدوثها ، يفكر في صوت عابر غامض سمعه ليلا ، ربما انسان يتألم ، أو صراخ حيوان ضال ، أو مرور تيار الهواء بين شقي جبل أو تزحزح صخرة عن موقعها ،

أو حدوث صدى لشيء غامض يسبح أو يتحرك ، ليلة أمس حار في تفسير هذا الضوء لم ترصد أجهزة الرادار في القوارب أي سفن قريبة ، لم تدرك الأبصار مقدار المسافة التي تفصلهم عن الضوء ، قال أحد الجنود، ربما أرسل العدو قاربا للتفتيش ، وقال آخر ان البحر يضيء في مواضع معينة لأن الشعاب المرجانية تتوهج في القاع ، قال آخرون ان هذا الضوء متحرك ، لم يستمر الضوء الغريب انما اختفى فجأة كظهوره الغامض ، لم يستطع الرفاعي ان يمنع نفسه من التساؤل ، ما مصدر الضوء ؟ المفاجأة لا ترهبه والمجهول لا يخفيه ، ولكنه يود دائما ان يعرف ، لكي يحدد موقع الخطوة التالية ، ضاع الضوء ولم يهدأ البحر ، في الثانية والنصف جاء بلاغ عن تسرب الماء الى القارب رقم (٣) ، جز على اسنانه ، هذه العتمة وهذا الهياج ، والبحر والرجال المسئولون عن صيانة القوارب واصلاحها ، والقوانين التي تحول بين الانسان والمشي فوق الماء أو التنفس قرب الأعماق كل هذه العناصر تعاندة ، ملامح الرجال مرهقة ، المياة تغمر جاكتات الانقاذ ، وعندما أصدر الأمر ، وأدار ظهره للبحر والريح ونأى عن الهدف

المرجو بدا وكأنه يقتطع من عمره عشر سنوات كاملة ويرميها الى أعماق هذا السديم المائى الجبار .

انه الآن البحر وحيدا . لا يقربه أحد ، أمرهم بالراحة يكره رؤ ية رجاله متعبين ، لم يقبل أن يصحبه أحد عند ذهابه الى الغردقة فيما عدا مصطفى ، وعندما عادا الى شدوان أمر مصطفى بالتوجه للراحة ، أما هو ، ، فارتقى هذه الصخرة التى تبدو كشرفة عالية مطلة على البحر الذى يبدو هادئا الآن ، مخادع إلى آخر مدى ، فى أكثر من مرة هاجم تحصينات العدو بالمواجهة ، لم يلف ، لم يناور ، مالا يتوقعه العدو اما المستحيل أو غير المعقول ، اخترق كلا الحاجزين ، لكن هذا الحصن الكونى الأزرق ، من أين ينفذ اليه ؟

اليوم العاشر
٩ أكتوبر ١٩٧٣

استعد للاشتباك . . .

لم يعد البحر محور التركيز الوحيد ، ظهرت لنشات العدو ، يمكن تقدير حجم اللنش ونوعه وحمولته من زبد الماء الأبيض الناتج عن شق المقدمة النحيلة الحادة ، وبالتالى تحديد سرعته وتسليحه وعدد طاقمه ، ان عقلة الآن يعمل بسرعة ، ماذا يريد العدو ان يفعل ؟ ان المسافة التى تفصلهم عن الشاطىء لم تعد بعيدة ، ينتبه الى استدارتهم ، عدد اللنشات اما ثمانية أو سبعة ، انهم يحاولون دفع الزوارق الى الساحل ، ربما لحصرهم بين نيران المدفعية الأرضية ونيران اللنشات . .

الرفاعى ينادى . . الرفاعى ينادى . .

اللنش الذى يقوده وسام لا يجيب ، يكره الغموض ، يمقت ابتعاده عن الرجال حتى ولو فى عرض البحر حيث المسافات غير متصلة ، وكل زورق يمثل وحدة قائمة بذاتها عند التوقيت المناسب ، يتأكد من محاولة العدو حصرهم ، إذن ليقم بمناورة ، إنه يستدير ، يطلق نيران مدافعه الرشاشة ، يلفت إليه الانتباه ، ثم يتخذ أقصى سرعة مع استمرار الاشتباك ، ربما أتاح الفرصة لبعض الزوارق كى تصل الشاطىء ، تنصب الصواريخ ، لكن لاشك أن أنظار العدو كلها مركزة الآن فوق هذه المنطقة ، المهم الآن ان يجر وراءه هذه اللنشات ، يتجه الى جنوب شرق حيث الساحل السعودى ، كمية البنزين تكفى ونوعية الزورق أسرع من لنشات العدو بسرعة ينتقل مصطفى من مقدمة الزورق إلى مؤخرته ، ترى ماذا يفعل الرجال الآن ، كيف يتصرفون ؟ أيقف البحر فى مواجهته هذه الليلة أيضا ؟ بالأمس علت الأمواج ، والبرودة واليوم يجىء العدو ، لن تستدير مقدمة القارب إلا عند السطر الأخير ، فى اللحظة التى لن تليها لحظة أخرى ، ليته يمتلك القدرة التى تجعله قادرا على إطالة مدى الموجة اللاسلكية لتصل الى رجاله فى بقية اللنشات ، لا يمكنه مد البصر والحواس ليدرك ماذا يفعلون الآن لا يمكنه مد عتمة الليل حتى يتم مناوراته ثم يعود ليلتحم بهم ، لا يمكنه تهدئة الموج ، المدى محدود بما يضمه هذا الخزان من وقود ، ما تشير اليه الابرة المعدنية .

ينطلق مدفع مصطفى الآربى جى . .

سيف من اللهب يخترق الظلمة ، يبعث نافورة من نار فى قلب البحر . .

أصيب قارب معاد ، القارب يغرق ، لتستمر المطاردة ، لا تسمح الظروف بالعودة ، وأسر الغرقى ، فى السماء تتحول النجوم عن مواضعها ، وصوت يشبه أزيز طائرة ، لم يتأكد بعد ، لا يكف عن المناورة ، ان لم ينفذ من هذا الجانب فليأت من جانب آخر للدنيا أربع جهات أصلية وأخرى فرعية ، لو أمكن اغراق زورق آخر منذ سنة يعد لهذه المهمة ، استطلع البحر مرات ، وعرفه بالنظر ، وبالإبحار ، وعيون الأدلة ، يأبى التفكير فى أن البحر أجبره على العودة ليلة أمس ، إنما يتعلق الأمر بتقصير ما فى خطوات التجهيز لم يهدأ بعد العودة إلى شدوان ، لم ينم حتى الآن ، ذهب الى الغردقة ليعود بزورقين آخرين ، واعاد توزيع الحمولات ، تفحص أدق الأشياء ، الليلة يظهر العدو ، الزورق لم يتوقف عن الإندفاع ، لا يعنيه ما يجرى له لأن ، ما يقلقه موقف وسام ورجاله وأبو الحسن ومن معه والملازم أول صابر فجأة يشعر وكأنه ، سائق قاطرة انفصلت عن مركبات القطار ، انه يحدق الى شاشة الرادار المستديرة ، لا أهداف ، يلملم أطراف الزورق بعينيه ، مصطفى يحدق فى العتمة ،

عند الأفق الذى بـدا قريبـا تتدلى النجـوم منغمسة فى البحـر ، ضجيج المحرك ، صياح الرجال الـذى اتخذ إيقـاعا منتـظما منذ بـدء المطاردة ، تكبيرات العيد ، الله أكبر كبيرا . . والحمد لله كثيرا . . الصوت الجماعى المهيب ، كل هذا لم يحجب عنه الهدوء الذى خيم خارج هذا النطاق ، محرك الزورق لم يطرأ على صوته خلل ينبىء بخطأ ما ، لم تشحط الآلات لم تتوقف ، لكن ثمة شىء تغـير فى الواقـع الخارجى ، انسحب العـدو ، عادت الزوارق ، أما عجزا أو يأسا ، لكنه يضع نفسه مكان قائد اللنشات المعادى ، لماذا التوقف ؟ ربما لقرب نفاذ الوقود ، ربما لاستدعاء طائرات الهليوكبتر ، فى حالة استئناف المطاردة لابد من البحث فى نفس الاتجاه . . يستدير فى الليل الذاخر بالأمواج والنجوم ، يود لم ان هذه اللحظة شهدت تصرفا مختلفا ، ان وجهه يتقلص فجأة ، هذه أول مرة لا يصل فيها الى الهدف ، كيف ؟ كيف سيفكر فى هذه العملية عندما يصبح وحيدا ، أى المبررات قد يرددها بينه وبين نفسه هو الذى لم يلجأ الى المبررات قط ، تم اغراق زورقين رآهما بعينيه وربما أغرق الرجال زوارق أخرى ، تلك خسارة فادحة ، ان عينيه تضيقان ، هل تحين لحـظة من عمره ليجـد العزاء فى إستبداله هدفاً بآخر لتغرق عشرات اللنشات ، ولكن محطة الرادار البحرية لاتزال تدور عند المرتفع الصخرى القريب من شرم الشيخ ، وصواريخ الكاتيوشا التى لاتزال متمددة فى الزورق لم تلتحم بها ، ثم ما هذا ؟ ربما

أغرق الرجال ، ربما أصاب الرجال ، كلهم فى مهمة واحدة ويضطر إلى التخمين . . ربما . . ربما . . ، لكنه أبعـد العدو عن زوارقهم ، سبب ارباكا له أليس مجرد ظهوره فى هذه المنطقة فيه ارباك للعدو ، انه يعرفهم جيدا ، ستبذل عشرات التحليلات ، لماذا ظهرت القوات المصرية فى هذه المنطقة ؟ لماذا جاءت ؟ أى أهداف تقصد ؟ ثم يلى ذلك اجراءات وزواق تتحرك . . أليس فى هذا تعطيلا لجـزء من قوات العـدو ؟ . . إنه يـأبى الأفكار التى تحوى شبهة العزاء مهما قيل ، فهو لم يضع قدمه على صخور شـرم الشيخ ولم يسكت محـطة الرادار ، لم يلتحم ، فى سـاحـة الكليـة الحـربية ، قبـل مباراة الكـرة ، فى نادى الجيش الـريـاضى ، يجـرى ، يجرى ، يتبادل الكرة مع أعضاء فريقه ، قبل النزول إلى الملعب يقول ،

لن نعرف الهزيمة ، ضحك . . قال ، لو شعرنا ان الهزيمة قـادمة فلينتـه اللعب بأى صورة . . لكن لن ينتهى بهزيمة . . هل يتجه الى شرم الشيخ الآن ؟ هل يوجه المقدمة إلى الأهداف الأصليـة ؟ والعودة ؟ ليس مهـما التفكير فى العودة ، ما يؤلمه أن يظل بعيدا عن الهـدف ، الهدف الـذى اختاره بنفسه ؟ درسه بعناية ، قضى الساعـات الطوال يتفحص صـور الاسـتـطلاع ، يدرس التيـارات وتقاريـر الضفادع البشـرية عن منـاطق الرسو ، العمق والضحالة أى كدر ليلى ثقيل ينزل فوقه ؟ ، حتى الموج هدأ

والريح استقرت على صوت واحد كالعويل البطىء الملوع ، يخلو البحر تماما يبدو امتداده بليدا ، باردا . . وكأن شيئا لم يحدث . .

اليوم الخامس
١٤ أكتوبر ١٩٧٣

أبدى الرائد وسام ملاحظة . .
لكن هذه المنطقة مليئة بالشعاب المرجانية . .
قال الرفاعى . .
لهذا سنجىء إليهم من هنا . .

الآن تطير قوارب الزودياك فوق رذاذ الماء المتناثر ، يستند الرفاعى إلى حافة الزورق بيده ، يمسك بيده اليسرى مدفعه ، يتطاير رذاذ ويصخب الموج ، وتشهق سماء زرقاء زجاجية ، يبدو شاطىء شلاطيم صخريا وعرا ، يهدىء الرفاعى من سرعة قاربه ، يبدو أن العدو لم يتوقع قدوم أحد من هذه المنطقة ، لم تظهر دوريات ساحلية ، لم تحوم أى هليوكبترات فى السماء ، ترتفع يده ، تتوقف المحركات المركبة فى مؤخرات الزوارق ،

يقف الرفاعى غير منحن فى القارب ، يمسك أبو الفضل بمجداف قصير ، يضرب الماء بسرعة ، يتراجع القارب قليلا ، لكل خطوة حسابها ، كل ما يقومون به معروف من قبل ، يتراجع البحر ، فجأة تبدو خطوط بيضاء غليظة قادمة من الخلف ، يتسابق الموج ، يتحفز الرفاعى كأنه يوجد تنسيقا خفيا بين حركة الزورق ، وحركة الأمواج ، تدرك الخطوط البيضاء القارب ، تعلو به ، يخف الوزن ، لو اختل التقدير سيهوى القارب فوق الشعاب المرجانية ، ستارة الخوازيق المثبتة فى القاع ، حراب ملونة ، خادعة ، تحمل الأمواج القوارب إلى الماء الضحل ، يقفز الرفاعى ، يمسك مقدمة الزودياك ، يثبت أبو الفضل المخطاف بين الصخور ، يشير بيده الى الزورقين الآخرين ، فى أولها العقيد علاء ، يقف عند مقدمة الثانى وسام ، انه لا يرى ملامح وسام لكنه يشعر براحته لأنه صاحب الاقتراح بتخطى الحواجز المرجانية هكذا ، يخطو الرفاعى ، لا يتقدمه أبو الفضل ولا يتجاوزه علاء ، فى الهجوم هو الحرف الأول ، وفى العودة هو اللفظ الأخير ، لحظة الاشتباك طلقته تسبق كل الطلقات ، عندما يخرج فى النهار فكأنه يرتدى ثيابا خفيفة والبرد شتوى قارس ، لكن حركة المد والجزر الآن تناسب حركة القوارب ، فى الليل ينحاز الى جانبه عنصر المفاجأة ، ويمسك بزمام المبادرة ، من حنايا السواد يرصد الخطر ، حتى الآن لم ينبهه ذلك الهاجس الخفى الى انهم اكتشفوا أو رصدوا ، وأجاد العدو استغلال الليل

فى شرم الشيخ ، لكنـه يجىء إليهم هنا فى وضـح النهار ، وفى ظـروف لا يتوقعونها أبدا ، وفى قوارب لم يحدث ان جرؤ انسان على عبور الخليج بها ، اذا كانت زوارقهم أجبرته على اصدار أوامره الى رجاله بالتفرق وان يتصرف كل منهم كوحدة مستقلة ، اذا كانوا قد حالوا بينه وبين النزول على صخور شرم الشيخ ، اذا كانت مناوراتهم استهدفت حصره بين الهلاك العائم فى البحر والهلاك المثبت إلى اليابسة ، اذا كانت طائراتهم اكتشفته وأبلغت فكمنوا له وترصدوه فانه يجىء الآن وعيون الدنيا مفتوحة ، ويعبر الخليج فى الزودياك يخلق الصعوبة ويمتلك القدرة على قهرها ، وهكذا يبرز أمام العدو عنصر مفاجأة غير متوقع ، حتى وسام أبدى دهشة عندما سمع الاقتراح ، قال أن هذا صعب ، الخليج عات على الزودياك ، مع أن وسام ابن بحر ، يعرف ما سيقوم به العدو لو جهز لعمليـة مشابهـة ، سيوفـر أحدث المعدات لضمان حياة أفراده ، غطاء جوى وغطاء بحرى وربما دفع بغواصة للحراسة ، ثم قصف جوى على الهدف ، وعندما تصبح الظروف وثيرة تماما يدفع برجاله ، من قال احرص على الموت توهب لك الحياة ؟ عندما عاد بعد المطاردة إلى شدوان رأى الزوارق الثلاثة ، راحت نظراته تعدو على وجوه الرجال ، ابتسم علاء ، قال : اطمئن يا أفندم لقد عدنا كلنا ودمرنا ثلاثة لنشات معادية ، أدى أبو الفضل التحية العسكريـة ، عانقه أبو الحسن ، قال انه فى البداية سادة ارتباك لانهم اعتادوا ان يذهبوا

مع الرفاعى وان يعود هـو بهم ، لكنه تقمص روح الـرفاعى ، وسـأله نفسه ، ماذا يفعل فى مثل هذا الموقف ، وأى قرار يتخذ ، هكذا عادوا الى شدوان ، عادوا بدونه ، عادوا زورقا وراء الآخر ، يفصل الأول عن الثانى مسافة زمنية لم تحدد من قبل ، ولم توضع فى خطة ، لم يهدئه انهم أبـدوا تأثرهم لأنه حول نفسه الى هدف وأبعد العدو ، لا يعنى هذا ان ايريال الرادار البحرى كف عن الدوران فى شرم الشيخ .

من فوق الصخور القائمة عنـد نهاية المـدق الملتوى بـدت صهاريـج البترول ، تسعة ، لم يـطرأ أى تغيير ملفت للنـظر منذ استـطلاعه لهـذه المنطقة ، الصهاريج هنا غير محاطة بسواتر من الطوب لبعدها ووقوعها فى منطقة وعرة نائية ، رصد عدة جنود يمشون بين الصهاريج ، هـذه معالم تغيير ، بالطبع لابد أن تزيد الحراسة فى زمن الحرب ، يلتفت حوله ، تشير يده الى عدة جهات ، يسرع الرجال منحنين اليها ، يقف برداء الضفادع البشـرية الأسـود ، المطاطى ، الملتصق بجسـده ، بدا قـادمـا من عـالم غامض . . لحظة التصويب ، التسديـد الى الهدف ، تتنـاثر الشـظايا ، ينبطح بعض الجنود أرضا ، تتصاعد هذه الصيحات المدموغة الغـامضة النابعة من عمق غير مرئى فى الصدور ، صرخات تكون حاجزا يحجب كل شىء عدا القتال ـــ يرفع يـده ، لم تشتعل النيـران فى صهريـج واحد ،

الصهاريج خالية ، فرغها العدو ، حراسة خداعية ، ليتركز الهجوم الآن على الافراد ، يجىء الرد ، يبدأ الحوار النيرانى ، لكن هذه المواسير المتراصة المتجاورة ، إلى اين تؤدى ؟ ينظر الى علاء ، إلى مصطفى ، إلى ابو الفضل ، ليبق علاء ، ابو الفضل ، ليأت مصطفى ينحدران بسرعة فوق الصخور ، يمسك المحبس المعدنى ، ليتتبعا هذه المواسير ، اخطأ عندما تصور أن جديدا لم يضف ، ستأتى النجدات خلال ثلاث أو أربع دقائق ، قد يتدخل الهيلوكبتر لأن المنطقة وعرة ، لكن لن يستخدم العدو الطيران المقاتل يمشى الرفاعى منتصف القامة يمسك المحبس كعصا يتوكأ عليها ، فجأة يشب ، على بعد مترين منه يشهر مصطفى مدفعه الأتوماتيكى السريع ، سبعة أنابيب ، قطر الواحد العشرين سنتيمترا ، تنبه الرفاعى الى انها تعبر الصهاريج ولا تتصل بهم ، تتجاوز الموقع ، اين البداية ، أين النهاية ؟ يوازن خطأه ، يلتفت حوله ، انه مكشوف الآن ، يمكن لكل الرجال عد أزرار ثيابه من مكانهم ، اما العدو فلن يستخدم جهاز التنشين الآلى اذا ما صوب اليه فوهة ، يدس المحبس ، الانبوب الاول ، الثالث ، الخامس ، التاسع ، ما من بترول ، بعض شفقه ، يخطو ثلاث خطوات إلى الشمال ، تبدو مشيته مترنحة ، يضوى الرصاص ، يدفق قلب مصطفى حفنات من الدم فى خفقات متتالية ، الطلقات ترشق حول الرفاعى ، يضغط زناد المدفع ، دفعات متتالية ، لم ير أحدا ، لكنه أطلق

النار ، ربما أربك ، ربما أصاب ، يحدث ازعاجا يمنع من اصابة الرفاعى ، الهدف الواضح الجلى ، أنه يقفز ، شظايا رفيعة ، بقع حمراء على ضوء النهار ، يتراجع فوق شريط رخو من الرمال محفوف بصخور متدحرجة متباعدة ، يزداد اقترابا من مصطفى ، إلى الأمام تستقر دفعة رشاش .

يشتد اللهب . .

نافورة حادة فحيلة تنبثق من الأرض ، تتضخم ، تتنفخ ، تأخذه الدهشة ، الأرض ألسنة من النيران البرتقالية ، تختلط بزرقة حادة كضوء لحام الاكسجين ، يتبدد شتاء سيناء القارس ، ترتفع الحرارة .

البترول . . الانابيب مدفونة . .

يصوب باتجاه الأرض الرخوة ، لن تفرغ جعبة العدو من جديد ، المواسير الحقيقية تحت الأرض أما الانابيب المكشوفة فللتضليل ، أى هدف استطلاع جوى يكشف هذا ؟ النيران تستفحل ، مصحوبة بهدير وصليل ، الدخان اللزج الكثيف يلفه ، يحجبه بعد أن وقف كعلامة تنشين فى أرض مسطحة ، يتساقط فوقه الضوء كله ، الانبوب يقتلع نفسه من الأرض ، يمتد إلى أعلى مناطحا الفراغ ، يعدو بسرعة ، يشير بيده اليسرى ، يتقدم الرجال عبر مدق واسع وأكثر سهولة ، يؤدى الى البحر ، يقول علاء . .

ـ أمسكت قلبى بيدى . . جعلت نفسك هدفا . .

الرفاعى لا يجيب ، صدفة نفذت الطلقات إلى باطن الارض فتفجر البترول ، إنه يمقت الصدفة التى تنوب عنه فى انجاز عمل ما . .

حمدا لله على سلامتك يا أفندم . .

بقايا لهفة فى عينى مصطفى ، هل يقول له ان انفجار الانبوب حدث بالصدفة ، لم يكتشفه بالمحبس ، هل يقول لهم انه يمقت الصدفة لانها تدفع بالشظية الى الاتجاه الذى تحدده وليس الذى يقدره هو ، انها تنتقى ثم تندفع ليتطابق الظل بالأصل ، يمر بعينيه على كافة المواقع المرتفعة المشرقة عليهم ، يمكن رصد اللهب الآن من ضفة الخليج الغربية ، سيستمر اياما ، الوجوه راضية ، تنظر اليه بقلق واعجاب ، لكنه غير مقتنع ، لاينتابه ذلك الهدوء الذى يراوده بعد أداء عملية ناجحة ، هل ما جرى صنعته الصدفة أم يداه ؟ لا يذكر متى تحدث أمامه أحد الضباط عن شاب تخرج فى الكلية حديثا ، ابتسم شخص ثالث ، قال باعتزاز . . إنه تلميذى . . إنه صناعة يدى .

اليوم الرابع . .
١٦ أكتوبر ١٩٧٣

فجأة ، يصدر أمرا بالتوقف ، يبدو الصمت مضاعفا ، والليل بلا قاع ، كأن خطوهم أوجد للصمت صوتا ، ما من شيء اجبره على اصدار الأمر بالتوقف ، لكن طول السير ، وصعوبة الطريق ، يجب الأمر بالتوقف فجأة لابقاء حالة الترقب حتى لا يتسرب الخدر بأى درجة إلى الحواس ، الليل لا يفصح عن محتواه ، كل خطوة الى جوفه مهددة بالمباغتة ، يطوى الليل من المفاجأة بقدر ما يحققه له من غطاء ، إنه يشير باستئناف السير ، مع الرياح التى تمضى من الشمال الى الجنوب تصل اليهم أصوات العدو ، أما أصواتهم فتولى الى الخلف ، الحديث ممنوع تماما خلال المشى ، اما

احتكاك الاحذية بالصخور فلا يحدث أى صوت بفضل طبقات الفلين المضغوط ، ينظر الى السماء ، يتأكد من اوضاع النجوم ، الاتجاه صحيح ، بحسه يدرك أنهم يسلكون الطريق الصحيح ، لكن لابد من استشارة الاشياء الازلية التى لا تغير مواضعها أبدا ، يتوقف امام ربوة متوسطة الارتفاع ، يلحظ ظلا خفيفا للعقيد علاء ضوء النجوم أو هذا الوهج الخفيف الذى يسبق شروق القمر ، فى وثبات سريعة يرتقى الربوة ، يتبعونه بنفس الترتيب ، يلى هذه الربوة مسطح من الارض يتخلله حفر ، ثم مضيق صغير يقطعونه جريا تفاديا لخطر الحصار ، يكره القتال وظهره الى مانع الا إذا اجبرته الضرورة ، عند نهاية المضيق توقف ابو الفضل ، فى لحظة الخطر يطلق الاشارة الحمراء ثاقبا سواد الليل ، ثم يشتبك ، تزداد الأرض وعورة بعد عشرين خطوة سريعة توقف الجندى الدمياطى والجندى الجرجاوى ، كمين غير مرئى يتم اسقاطه خلال المعركة ، من الصعب اكتشافه ، بعد لحظات يبدأ الانتشار ، يتوقف الرفاعى عند مشارف الليل وكأنه سيتسلق الأفق ، توقفه يعنى اتجاه كل منهم الى الموقع الذى ستنصب فيه الصواريخ ، من قبل ضربوا هذا المطار ثلاث مرات ، تبدو أضواء مفاجئة ، نصل من الضوء الأزرق يشق الصمت المعتم ثم يختفى ، هدير مكتوم ، تلتقط اذناه كافة ما يصدر عن المكان ، لو تغير ايقاع تنفس أحد جنوده يرصد الخلل ، يستمر الهدير ثابتا لا يقترب ولا ينأى كخطوات جنود

ثابتة « محلك سر » احدى العربات المدرعة « تسخن » المحرك ، لم تفارق مكانها ، زفير العادم يتتالى لكن ثبات الهدير لم يتغير ، عربة نصف جنزير على الارجح ، المؤكد انها ليست دبابة ، هذا يعنى أنهم ربما تجولوا حول المطار فى أى لحظة ، آه لو توجد وسيلة تصل بين الطلقة والهدف المرجو ، توجد مسارا لا تحيد عنه المقدمة المدببة ، فينغرس الصاروخ فى وسط العربة نصف الجنزير ، أو فى ميس الضباط وقت العشاء ، أو فى قلب غرفة عمليات المطار ، الآن يمكنهم الانتشار وتركيب الكاتيوشا بهدوء ، الخطر محتمل من الأرض ، الهليوكبتر لديهم لا يطير ليلا الا الضرورة قصوى خاصة فى أماكن وعرة كهذه ، أما الطيران المقاتل فيمكن ان يظهر فى ثوان ، لا يخفى اعجابه بالسرعة التى يستجيبون فيها لمواقعهم المهددة ، فى ثوان يظهر الطيران ، يجب ان نتعلم الأشياء الجيدة من العدو الذى نقاتله وألا نترك له فرصة معرفة الجيد فينا ، عند الحد الامامى لمنطقة عمل المجموعة تحرك بحذر ، تجوس عيناه باستمرار ، يحرص الا يبدو ، لا يفرد قامته إن الأمر يتعلق الآن بالرجال المنهمكين فى نصب الصواريخ ، يرهف السمع ، صفير خفى يسرى فى قلب الريح ، وشيش كأمواج البحر يسمع من بعيد ، نداء ناء يجيب على نداء ، أنه يطيل الاصغاء ، يضم شفتيه ، ان نصلا نحيلا ينغزه حيث لا يرغب ولا يود فى هذا الوقت بالذات ، فى اللحظات الأولى لم يول انتباهه عما يحفل به الليل وهذه الارض التى يحتلها

الغـرباء . ليس من المعقـول أن يحدث ذلـك الآن ، يجيبه شعـور حـاد بالقيىء ، يضغط شفته السفلى .

يندس خنجر محمى بيطء فى معـدته ، يعـرف أن الالم سينتشر كبقعة الحبر فوق النشاف ، قبض على المدفع ، ألصق مؤخرته بمعدته ، ينتبه الى ان جسـده تقوس ، سيلفت هذا نظر علاء ، ان علاء يحمـل الأبر المعقمـة ، ما عليه الا ان يقترب منه ويغرسها فى فخذه من فوق الأفرول ، سيختفى الألم ، لكن مجرد اشارته الآن الى علاء ستحدث ارتباكا ، سيتساءل كل منهم ماذا حدث للرفـاعى ؟ وعليه الا يـأتى تصـرفـا يؤدى الى ان يشغـل اذهـانهم بمثـل هـذا الاستفسار ، تتوغل اسنانه فى شفته ، بهدوء بصق ، يجول بعينيه فى العتمة ، يجب الا يغفل لحظة ، حماية الرجال من المداهمة مسئوليته ، انه يخاطب معدته فى صمت ، يعاتبها ، اهذا هو التوقيت المناسب ؟ ليتأجل الألم ، وعنـدما يصـل بالرجال الى الامان سيستلم للفتك ، لن يقاوم وخزا ولن يتصدى لهذا التآكل المر داخله ، لن يسكته بالأبر المخدرة ، ليمرح الالم كما يشاء لكن ما يرجوه ان يكف الآن ، ان يهجع ، ان يستكين ، ان يصمت هذا النباح الانحناء قليلا ، قطرات عرق ، تهوى به الارض ، قوة خفية تسحب روحه إلى اسفل ، هذا الاحساس المقيت بالانهيار ، يهوى ، اثبت ، حدق البصر يا رفاعى ، ارهف السمع ، ألم تقاس ما هو أفظع ؟، الم تعان الظمأ ساعات طوالا وانت تبحث عن الدورية المفقودة غرب الفيوم والماء فى يدك ترفض ان تقربه حتى تشعـر بآلام التـائهين وتستحث نفسك على التقدم اليهم ، اثبت ، صد هذه الطعنة ، لكن آلام الظمأ فى متناول اليد ، تخففها جرعة أو يسكنها الأمل ، موجات متتاليـة ، انتبه الى ما يبطنه الليل ، قلص وجهك كما تشاء فبعد لحظات ستواجه الرجال ويجب ان

تبدو طبيعيا للغاية ، أى ارتعاشة بادية ستسرى فى أوصال المجموعة ، لو صحت على العقيد علاء فربما يشعر الرجال بأن ثمة شيئا جرى ، عندئذ لا تدرى نفس بماذا سيتصرفون ولا كيف سيعودون ، ترفض معدته الاستجابة الى أى رجاء ، ان فليقمع هذا الالم بالألم ، يضغط معدته بالمدفع وتغوص أسنانه فى شفته يجب ان يستمر فى غزوة لليل ، ان يسدد اليه السمع ، يجب ان يستعد للقتال ، ان يثبت فى المقدمة ، لو يصل الى هدنة مع الألم سيستلم له فى القارب وليس عند الوصول الى الضفة الغربية ، محال ، لن يمكنه دعوة العقيد علاء الى الركوب معه فى نفس الزورق ، سيثير هذا شكوكا ، قفاز من اللهب يلكمه ، انه يخلو بألمه فى مواجهة الليل ، يعود الهدير ، نصال الضوء تشق العتمة فوق المطار ، يندلعالالم ، الم يحتمل أوجاعا أشد ، هذا الصداع الذى يباغته ، يهشم داخل عينيه وجانبا من رأسه ، تعرف نادية بعد طول معايشة اللحظة التى يبدأ فيها الألم ، بالمعدة أو فى الرأس .

تمام يا أفندم . .

يحاول أن يبدو طبيعيا ، يجيىء الخطر من الداخل أيضا حيث لا يمكنه اقامة غلالات نارية او ستائر دخانية ، يعكمه الوخز ، يتوقف علاء بجواره ، من صوته يدرك انه يبتسم .

يا سلام لو نقوم بزيارة المطار . .

يقول الرفاعى

الليلة ستنوب الصواريخ عنا . .

يجب الوصول الى الشاطىء فى نفس التوقيت الذى تنطلق فيه الصواريخ ، يتقدم خطوات ، لوطء الأرض صدى وترجيع فى احشائه ، يقول مصطفى بصوت خافت :

يا أفندم . . انت لم تبارك العملية .

معك حق يا مصطفى . .

المرة الآولى التى ينبهه أحد رجاله الى عادة لم تنقطع أبدا ، يهادنه الوخز لحظات ، يجب ان يحجب ما يشعر به ، يتفحص الاسلاك ، و «الفيش» وأوضاع الصواريخ ، يعود ليتقدم الطابور ، يجب الا يلحظوا أن ثمة رياحا خفية تحاول هز الجزع وأن هجيرا قاسيا يحاول قص الظل ، لكن بعد العديد من الخطوات فى طريق العودة عليه ايقاعا لحركته لم يقصده ، انه يثق بعلاء وابو الحسن وسمير وكل من معه ، لكن لن تدركه الراحة الا إذا تأكد بنفسه ، سيعتبر هذا نذير سوء ، كما علمته الايام رصد اى تغير فى خطى ضباطه وجنوده اثناء سيرهم الى الهدف فربما رصدوا فى عجلته ما يقلقهم الآن ، انه يتوقف وفى اللحظة نفسها تتوالى الشظايا المكتومة تثقب جدران معدته ، لكنه يجتهد فى الا ينحنى حتى . سيطول الأمر دقائق أخرى ، ولو ، كم من المرات تجاوزوا خلالها التوقتيات المحدودة ، لن يشكوا فى عودته لانهم اعتادوا منه الدقة . . ينظر الى علاء . . « سأعود » لابد أن ألقى نظرة أخرى . . اتخذوا أوضاع كمين . ، يشير الى ابو الفضل :

« سأتقدم . . وغطينى »

اليوم الثالث . .
١٧ أكتوبر ١٩٧٣

عشرون ساعة تقريبا انقضت حتى الآن ، لابد أن ممرات المطار عادت تعمل الآن بعد ان تساقطت فوقها الكاتيوشا ، تعطيل ساعة واحدة فى زمن الحرب شىء لا يستهان به ، يحتاج العدو الى كل ممر ، الى كل دقيقة من عمر المطار ، فى مواجهته يعلو الخليج عنيفا كالقدر ، الاسماك الضخمة تأوى الآن الى الاعماق البعيدة ، وتدق أجراس الانذار فوق السفن المبحرة ، ويرافق الرياح عويل دائم ، وينظر جنود العدو الى البحر العاصف باطمئنان ، لن يأتى أحد فى مثل هذا الجو ، ثم من يغامر بالهجوم مرة ثانية على نفس الهدف ، فى نفس التوقيت ؟ فى العصر عندما بدأوا تجهيز القوارب التى استخدموها أمس نظر اليهم ضباط البحرية فى القاعدة بدهشة ، قال أحدهم لوسام ان البحر قوته ثمانى درجات ،

ابتسم وسام ، وقال ان الجميع يعلمون ذلك ، عند الوصول الى الضفة الاخرى ستدوس أقدامهم نفس مواطىء الامس ، لكن مواقع نصب الصواريخ ستختلف ، سيتجهون الى منطقة مرتفعات صخرية عجوز لا تصلح لهبوط الهيلوكبتر أو تقدم المدرعات ، بل ان المشى فيها امر صعب وكريه ، فى الصباح ابدى علاء سرورا لأنهم سيهاجمون الهدف مرة أخرى ، ما يثيره غير المألوف ، مهاجمة هدف مرتين امر ليس جديدا على المجموعة ، لكنه ليس أسلوبا ، لا يعترف الرفاعى بأساليب وطرق ثابتة ، من السهل عندئذ ان يكتشف وان يرصد ، كل شىء فى الكتب ، لكن ثمة أشياء كثيرة لم تدون بعد فى الكتب ، فى لحظات الاستغراق تفاجئه الفكر ، فى لحظة استسلامه للنوم يباغته الحل ، من حوار عادى مع أحد الجنود يتفجر الاسلوب ،

الآن يرقب رحيل النهار السريع ، لن تمضى لحظات الا ويبدو أول نجم ساطع ، هو النجم الذى يرحل بعد سفر كل النجوم ، يتابع رص الصواريخ ، وصناديق الذخيرة ، وتثبيت الموتورات الى القوارب ، عندما ناقش تفاصيل هذه العملية ، قيل له . .

ولكن ذلك ينطوى على مغامرة . .

قال بوضوح :

نعم . .

لم يبح بتفاصيل ، أكد ان المسئولية تقع عليه هو ، ثم أى الامور لا تخلو من المغامرة ؟ صغرت المواقف أو عظمت فكل موقف يحتوى على قدر منها ، قالوا ان عبور الخليج فى مثل هذا الجو وبتلك القوارب مخاطرة ، قال انها ليست المرة الاولى ، ثم هذا ما لديهم من امكانيات .

تمام يا أفندم . .

يقف علاء صارم الملامح ، كل شيء معد للرحيل ، منذ ساعتين قال علاء انه من الضروري أن يستريح قليلا ، نظر اليه معاتبا ، كم يوم ستستمر الحرب ، الم يقض كل منهما عمره في انتظار تلك الايام ، من يدري ماذا سيحدث غدا ؟ أم أن علاء يفكر في خروج المجموعة بدونه ، قال علاء انه يفكر في الأمر كطبيب ، ضحك ، أما زال العقيد علاء يعتبر نفسه طبيبا ؟

اليوم الثانى . .
الثانى عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتذرون ، يحدث هذا العناق السريع ، الموجز ، الرجولى ، الحار ، تتصافح الأيدى بقوة ، فى الفراغ الفاصل بين العيون يتعلق رجاء ، نرجو أن يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرءوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معبقة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، والسمك كبير الحجم الذى تضخم وتوحش لابتعاد الصيادين عنه ، وطفوه ميتا بعد كل اشتباك ، ثم الطرق الصحراوية ، وموانع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاى بينها لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء أنه يتوجه بمشيه إلى تلك الصحراء الفسيحة ، ساعة

ونصف كانت تفصل القناة عن القاهرة ، فجأة تبدو عمارة حديثة ، وتاكسى اجرة بلونيه الاسود والابيض ، ثم تعبر الطريق فتيات ، وشبان ، وعربة يقودها رجل مطمئن الملامح ، ثم اعلان سينما ، كان العقيد علاء يظل منحنيا ، يحملق فى كل ما تقدمه المدينة مع العودة ، يتساءل ، احقا هذه بلدة لا تبعد عن العدو أكثر من ساعة ونصف بالسيارة ، احقا لازلنا فى بلد واحد ، ثم يشير الى مجموعة شبان ، شوف ، هل يشعرون بنا ؟ يصغى الرفاعى ولا يعلق ، أحيانا تستغرقه العودة الى المدينة ، الى تلك الشوارع التى احب المشى فيها صباحا ، تلك الساعات التى يبدو فيها ضوء النهار شفافا ، يبدو كل ما يحيطه كأنه يرى من خلال زجاج لا ملمس له ، تلك الطرقات المتوازية بعيدا عن الضجيج ، الشارع الذى كانت تطل نادية من احدى شرفات البيت الأول فيه ، فى الخامسة عصر كل يوم تقف ، ويجيىء متمهلا ، هكذا اتفقا فى التليفون ، ويراها هدفا ساطعا ، ويرصد ضوءا خفيا لا تتلقاه الا عينيه هو ، يستجيب قلبه فيخفق ، هكذا زمنا لا يرى كل منهما الآخر الا لحظات ، كثيرا ما أوقف سيارته اثناء نقله وحيدا ليمشى فى هذا الطريق الذى تبدو البيوت فيه مأطرة بالخضرة ، والستائر مسدلة موحية بالاسرار ، يود لو يرحل الى كل مدينة قضى بها زمنا ليرى بيتا ، أو جرسا فى مدرسة كان ينتظر رنينه بلهفة ، أو « كوبرى » خشبى فى بلقاس ، وذلك المسجد المورق بالسنين فى ملوى ، والمدق الترابى المؤدى الى جبل درنكة باسيوط ، والقوارب التى تعبر النيل من الغرب الى الشرق بالأقصر ، وتسلق الجبل الفاصل بين معبد الدير البحرى ووادى الملوك ، وتلك الصخرة غريبة الملامح فى اسوان ، والمسلة الناقصة ، والمرتفع المؤدى الى ضريح أبو الهول، هذا الشارع المائل بالحنين المؤدى بالأشواق الى البحر فى الإسكندرية ، والوادى المبطن بأشجار من حجارة فى الصحراء الشرقية ، والمقابر المنقوشة فى كهوف لم

يرها احد ، الوقوف عند سفح جبل الجلالة ، وعيون تتدفق منها المياه فى اقصى منطقة البحر الأحمر ، ومدخل البيت ، يود لو لم نفسه من كل جزء عبره يوما ، ان يرى كل هذه المناطق بنظرة واحدة ، فى كل مكان أودع قطعة منه ، وترك مقدارا من عمره ، انه يفهم علا ويدرك حدته ، لكنه لا يناقشه ، تنه جاء الى الدنيا ليقاتل عن كل الذين مر بهم وعرفهم أو مشوا معه وحاوروه فى تلك القرى والمدن عن كل من يعيشون فى هذه المساحات التى طار فوقها بالهيلو كبتر وبالانتينوف وبالاليوشن ، كل من ورآهم يرشفون الشاى فى المقاهى ويحتفلون باعياد الميلاد ، ويهمسون بالنجوى ، ويبوحود ويتناجون ويفكرون فى أى شىء سيأتى به الغد ؟ عن كل المارين بجوار مرقد الحسين ، والدائرين حول ضريح الامام الشافعى ، والساعين الى سيدى الفولى ، والمقبلين لضريح السيد ، والواهبين نذورهم لسيدى عبد الرحيم القناوى ، وسيدى الليث ، وهؤلاء السيدات المرتديات السواد ، المتجهات الى الاسواق الصغيرة المقامة بين القرى ، الحاملات فوق رؤسهن بضاعتهن ، يقابضن ويجادلن ويدخرن القوت لاولادهن ، صاحبات الوجوه المرهقة بزمن ثقيل الوطأة ، اذ يراهن يخفق قلبه تأثرا ، ويود لو قدم مساعدة ، أو ابدى ما يخفف حمل الأيام ، تهز ملامح الامهات المصريات التى تحمل بصمات الصراع مع الزمن والرجاء فى المدنة معه ، ملامح لم يرها فى أى بلد آخر ولا على اية ملامح اخرى ، لا يضايقه ان الواقفين بالشوارع ، أو الجالسين بالمقاهى لا يدرون بما يقومون به ، ليس لان اعمالهم قدر لها أن تولد أو أن تنتهى فى كتمان كثيف ، انما لانه جاء الى العالم ليحارب لا لكى يقوم بأى شىء آخر ، يقاتل عن هؤلاء ليؤمن النظرة الهادئة فى العيون ، يسع من يسعى بلا خوف ، ربما يرجو منهم قدرا من المبالاة ، لكن ما ذنبهم ؟ كثيرا ما قال لعلاء ، للناس فى بلادنا خاصية تختلف عن كل ما نعرفه ، فلتنشب الحرب ،

ليصغ الجميع الى أول بيان من الراديو ولتنظر الى ما سيبديه كل منهم .

ها هى البيوت غارقة فى النعاس ، شبان يرتدون لباس المقاومة ، يقفون مجهدين ، بايديهم مصابيح يدوية ، لكن لا سلاح ، لنفترض أن دورية معادية فاجأت هؤلاء ، كيف سيقاومونها ، تتوالى النواصى أحد الرجال ، يبدو كمساريات بالسكك الحديدة أو امترو يلوح لهم بيده ، يرفع يده بالتحية ، هذا التضامن الخفى ، المدينة لا تتجاهل عودتهم هذه المرة ، تستدير مقدمة السيارة ، تتجاوز البوابة الخارجية يرتفع الحاجز الخشبى ، المبانى يحيطها ضباب خفيف ، يلم بكافة التفاصيل . . اذن قدر له أن يرى هذا كله مرة أخرى ، لا يذكر متى توقف فى الحديقة المؤدية الى المكتب ، فوجىء انه يحتوى ما حوله بعينين غير عينيه ، عينا مجهول بقى فى الدنيا بعد رحيله ، توقف لحظة ، لماذا فكر هكذا ؟ وأى حالة غريبة هذه ؟ انه ينظر الآن الى المكان كله ، يصغى الى حرارة اللقاء بين الذين بقوا والذين عادوا ، يقبلون عليه ، يعانقونه ، يستدير حول المنضدة المثقلة بالاوراق والخرائط ، هل يدير القرص ؟ كل يصغى الى صوتها الذى سيبدو هادئا ، فى الايام البعيدة كانت نادية تنتظر عودةالهليو كبتر ، وترمق الطائرة من موقعها فى شرفة البيت ، لكن أكثر طائرات الهليو كبتر الآن ، فقط يدير القرص ويجيىء صوتها ربما تصغى فى هذه اللحظات الى اذاعات العالم ، لكنه لا يمد يده انه يخجل ، كل رجل هنا يتوق الى رؤ ية أولاده أو سماع صوتأهله ، انه يقف أمام الخريطة الضخمة الممتدة بعرض الحائط ، ينتقل من بالوظة على البحر الابيض الى رأس محمد فى الجنوب ، يحلق بعينيه فوق الخليج ، شلاطيم ، رأس سدر ، كيف تبدو مياه البحر الآن ؟ كم سرعة ارياح فى الخليج ، قوة البحر فى اشمال ، وقوة التيار فى القناة ؟ ما هى أوضاع القوات ؟ كم لغما رصه العدو

حول مستودعات البترول هذه ؟ واين تتجمع احتيـاطيات العـدو ؟ كيف يمكن تقليل الخسائر ؟ كيف يبدو الشروق فى كل موقع من مناطق القتال ، كيف تبدو الشمس فوق المعابر ؟ عند الحد الامامى داخل سيناء ؟ كيف يراها محارب جرح الآن ؟ بالضبط الآن . . يدق جرس التليفون . .

ـ صباح اخير . .

. . . .

ـ تمام . . علم يا أفندم . .

الجمعة ، التاسع عشر
من أكتوبر . .

تتوالى الانفجارات ، طلقات مدفعية سريعة ، صاروخ يتمزق منفجرا ، تنطلق فانتوم فى خط مستقيم متجهة الى عين الشمس كأنها ستهبط هناك ، فى اثرها طائرة ميج تمسك بذيلها ، بدا فى المطاردة ملمح انسانى كأن شخصا يعدو وراء الآخر ، لكن لم يرصد أحد لحظة اطلاق رشاشات الميج :

يقول الرفاعى انه سيتقدم الى اقصى حد ممكن ، وان مصطفى سيصحبه .

يقول علاء ان الموقف غامض ، والتقدم فيه مخاطرة لهذا يرجو ان يقوم بمهمة الاستطلاع هذه . .

يقول الرفاعى بهدوء ان مهمة الاستطلاع ستتم كما حدد هو . .

يهوى انفجار هائل من السماء ، تفرقع اصداء متتالية . .
يقول علاء انه من الضرورى . .
يقول الرفاعى . .
علاء . . هذا أمر . .

ماذا يحمل هذا النهار بين طياته ؟ أول مرة يتحدث فيها بصيغة الأمر ، والى من ؟ الى علاء ساعده الأيمن وسنده ، انه يشير الى مصطفى ، تلف عجلات الجيب فى الرمال ، تثب ، تتراجع ، تتقدم مخلفة غبارا أصفر ، ينطبق رشاش بعيد فى عصبية ، يتوقف فجأة ، يستدير ، يود لو يلقى عليهم نظرة ، ان يثبت الملامح فى ذهنه ، أجل هذه النظرة حتى يبتعد عنهم عدة أمتار ، لكن هذه الثنية من الارض أخفتهم ، حالت بينه وبينهم فلم يعد يراهم ، ينحنى مصطفى الى الامام ، جنزير دبابة مفرود كثعبان همدت حركته فلم يعد قادرا على التلوى ، الرفاعى يتأمل الجنزير ، جنزير مغطى بطبقة من الكاوتشوك ، وصلوا الى هنا اذن وتمكنوا من سحب جسم الدبابة ، ربما حدث هذا ليلا ، جنود يلوحون بأيديهم محذرين ، يلتفتون الى عربة الجيب بدهشة ، الى اليسار يتصاعد عامود من اللهب الحاد ، تتخلله بقع سوداء متطايرة ، عربة مجنزرة « توباز » يتدلى رأس تفحم من الفتحة العليا ، بدت التوباز مصيدة محكمة للأعمار ، فوارغ دانات ، يلمح الكلمات العبرية بسرعة ، وصلوا الى هنا ، لكنهم غير متواجدين الآن ، يتجولون فى المنطقة ، لم يستطع تحديد عدد الجثث التى تختلط ببعضها على جانبى الطريق ، هرستها الدبابات ، لم ير عضوا سليما واضح المعالم ، رأى حذاء يطل منه بقايا قدم ، ورقبة مشطوفة ، خندق مطمور ، يجز شفتيه ، احدثوا هـذا عمـدا ، يقيمون معـرضا للفـزع والرعب ، يمـلأ قلبه حنق ، تتـوالى الجثث

المتراصة ، فى خيـاله يـرى كل الأحبـة الذين يعـرفهم فى موقـع هؤلاء الذين لا يعرفهم ، يرى مصطفى ورفقة العمر من اليمن حتى هذه اللحظة ، علاء ، شقيقه سامى وملامحه الطيبة ، وخجله فى مواجهة الغرباء ، زيتون بيده المقطوعة ودأبة الهائل حتى تصبح اليسرى أشد فـاعلية ، أبـو الفضل وانتمـائه العميق لمجموعة ، نظرة الود فى عينيه ، فى الطابور ، بعد العملية ، فى رقاده بمستشفى المعادى ، يدى وسام ، شريف ، تلك الأعمار التى لازالت فى بدايتها ، الملامح التى يراها فى وجوه المجندين الجدد ، هذا العدو الدموى الجبان الذى يهرس جثة ويطمر خندقا بالجنازير يستهدف كل الأحبة ، ارادوا بث الفزع ، لكنهم استثاروا فيه الكرة وغضب مر ، واستفزوا فيه الحنق ، لماذا جلد الموتى ؟

قف هنا . .

تتوارى السيارة خلف مرتفع رملى ، تأز صواريخ أرض ــ أرض فـوقهم ، رشقة قوية لم تتبعها اخرى ، يصيح انسان فى مكان قريب ، تنفذ الصيحة خلال عدة انفجارات ، لكنه لم يستطع تمييز اللغة ، خلف الكثيب انكفأ جندى ، وجهه مدفون فى الرمال ، خيط دم نحيل يصل ما خلف الاذن اليسرى والارض الرملية ، فى العودة اما أن يدفن الجثمان أو يعود به ، فى السماء ينطلق وهج ابيض نحيل اخترق ضوء النهار ، الى اليمين على بعد حوالى خمسين مترا سكت ايريال قاعدة الصواريخ ، عربة مقلوبة امام الدشمة ، الصواريخ ، متنـاثرة ، فـوق مقدمة احدها تعلق جثمان هامد ، بدا كأنه محمول على مقدمة رمح غليظ هائل تمسكه أيد خفية لا ترى . .

يشير الى القاعدة . .
سأبقى هنا . . اذهب ودمر كل شيء . .

يسرع مصطفى ، حذاؤه ينثر الرمل ، من بعيد يختلط لون الأشجار بصفرة الرمال ، تتصاعد النيران من اماكن متفرقة ، عربات نقل دهستها الدبابات ، عربات مدرعة ، تحترق ، ينظر الى السماء ، يبدو على الطائرة ذعر انسانى ، من هدير صوتها ادرك أنها ميراج ، ان ثمة احساسا يبدأ لديه ، عندما يشعر فى المكان الذى اعتاد عليه انه ليس وحيدا ، وان ثمة غرباء يرصدونه ، لحظات ما قبل اكتشـاف الهدف ، تستقـر الحواس ، الميـج تنقص من أعلى ، لاتـزال ظهور الطيران يثير فرحة ، أحساس متبق من حرب الاستنزاف ، بتوقف عن التجول بعينيه ، يركز البصر فى اتجاه الخضرة ، ينفصل عن الاشجار جسم معدنى محدد الخطوط والملامح ، تتحرك يده بالمدفع ، ينظر من خلال دائرة التنشين ، باتون ام ٦٠ ، تتوقف الدبابة لحظات ، يتحرك البرج يمينا ثم يستـدير الى الشمـال قليلا ، لم تستقر بعد على اتجاه محدد ، كأنها تضبط توازنها ، من حركة المركبة يستشف ما يدور داخل أفرادها ، هذه الدبابة حذرة ، يبدأ صوت رشاشاتها ، تطهر طريقها ، تتمركز المقدمة داخل اطار التنشين ، يضغط . .

بسرعة يتناول مقذوفا آخر ، سخنت الماسورة قليلا لكنها لن تحتاج الى تبريد الا بعد أربع ، خمس قذائف ، فى البداية ولمدة أجزاء من الثانية كأن شيئا لم يحدث ، يغوص النصل فى الجسم ثم يتدفق الدم ، الآن ينفجر الهب ، دخان كثيف ، له قوام ، تبتعد عيناه عن الدبابة ، هذه الأرض تخفى آخرين ، تتردد صيحات متباعدة ، الله أكبر . . الله أكبـر . . يجرى مصـطفى ، تنفجر دانـة

خلفهما ، ترتفع حرارة الجو ، يدوى انفجار ازرق هائل ، يتميع لون الفراغ ، يغطى الهواء دخان رمادى ، كأن الشمس انشطرت ، فوق قاعدة الصواريخ ألسنة لهب بطيئة كأنه حريق فى مستودع كيمائى فى نفس الوقت يبدأ انفجار ذخيرة الدبابة ، ثم تنفجر الدبابة نفسها يقول مصطفى . .

فجرت كل الصواريخ . . احرقت كل الاوراق . .

يصيح الرفاعى . .
مصطفى . .

من الخضرة تبدو دبابة ، ثم تخرج دبابة أخرى ، ومن الرمال الصفراء المرتفعة تطل مقدمة دبابة ، وباتجاه القناة تبدو عربة نصف جنزير تحمل مدفع هاون ، وفى السماء أزير طائرة هيلوكبتر ، تظهر ثلاث طائرات تطير فى خط مستقيم ، من مكان ما ينطلق مدفع يشعل النيران فى دبابة سنتوريون ، لكنها تستمر فى التقدم ، تتوقف فجأة ، تتجاوزها دبابتان ، على مرتفع مجاور تتناثر نباتات صحراوية شاحبة فى السماء ينطفىء بريق النهار ، يتكاثف الدخان حتى يمكن النظر الى قرص الشمس من خلاله ، يضغط الزناد ، يناوله مصطفى الدانة يدوى صياح جماعى فى موقع الى اليسار ، يرتفع غبار فى المواجهة ، تتواصل اصوات الرشاشات سريعة ، لاهثة كماكينات خياطة تعمل فى ورشة فسيحة بلا سقف ، يرتفع صياح من أماكن متعددة ، تحترق دبابة أخرى ، وفى الفراغ ترف دانة هاون كرمش العين اذ يهتز بسرعة مطلقة ازيزا كنحلة تهوى ، وبعيدا يتوارى النهار الازرق الشاحب . .

اليوم الثانى . .
الثامن عشر من أكتوبر ١٩٧٣

القاهرة . . كما اعتادوا لقاءها ، لكنها تختلف كثيرا تلك الأيام ، بعد عودتهم من ضفة القناة الشرقية يصر قادة الوحدات على بقائهم ، لكنهم يعتـذرون ، يحدث هذا العناق السريع ، الموجز ، الرجولى ، الحار ، نرجو ان يرى كل منا الآخر ، الرمال صفراء ، والملابس صفراء ، والخطر فوق الرؤوس ، وقصف المدفعية لا يسبقه انذار ، والأيام كاكية اللون معقبة برائحة الدشم ، واضطراب مياه القناة ، وطفوه ميتا بعد كل اشتبـاك ، ثم الطرق الصحـراوية ، ومـواقع الحراسة وبروز عربات النقل عند المنحنيات ، وجندى وحيد يمشى فوق الرمال حاملا صفيحة مياه ، أو طعام أو شاى بينما لا تبدو على مرمى النظر منشآت أو مبان ، حتى ليظن المرء انه يتوجه بمشيه الى تلك الصحراء الفسحـة ، ساعـة

التكوين

قبل ظهر السبت الحادى عشر من يونية عـام ١٩٦٧ ، وقف النقيب بحرى وسام عباس فى منطقة لسان بور توفيق ، حوله تخلخـل النظام ، وانفرط ، عشرات الضباط والجنود عبروا القناة اما فى قوارب أو سابحين ، وفى السويس انشىء مركز لتجميع الشاردين ، فيما بعد استعاد كثيرا هذا اللفظ ابن تلك الأيام ، الشاردين فى الواحدة ظهروا ، جنديان توقفا فوق مرتفع من الارض ثم انضم اليهم ثالث فرابع فخامس ، رأى لاول مرة الزى الاسرائيلى العسكرى بلونه الزيتونى ، الاكمام المثنية حتى منتصف الذراعين ، ومن عدستى المنظار رأى وجها ابيض ، طويل الشعر ، من الخلف دفعوا بطابور من ثمانية أفراد ، يدى كل منهم مربوطة الى الخلف ،

أوقفوهم بالقرب من المعدية ، ابتلع النقيب بحرى وسام لعابه ، وفى هذه اللحظات عرف قلبه هذه الظاهرة التى أصبحت تلازمه فيما بعد ، دفقات مفاجئة كأن دماء مرت من قلبه مرة واحدة ، تصل آثار الخفقة الى أطرافه ، ويسرى خدر فى مؤخرة رأسه ، قال العقيد علاء ان قلبك عصبى وأصحاب هذه القلوب يعيشون طويلا ، لسبب ما أدرك أن هؤلاء الثمانية حفاة وان اقدامهم متورمة مع انه لم ير ذلك ، طاف العدو حولهم مشهرا رشاشات العوزى ، من الواضح انهم أوقفوهم فوق مكان مرتفع حتى يراهم كل من يختلس النظر أو يحملق من بور توفيق أو الشاطىء العريض الذى استلقى عاريا من المواقع والدشم والاسلاك الشائكة ، تقدم أحدهم ، كان نحيلا ، وبدا المشهد كأنه اعد بعناية ، طاف العدو النحيل حول الثمانية مرتين ، صفع الاول ثم صفع الخامس ، وامام الثامن تراجع قليلا الى الخلف ، وفى هذه اللحظة رأى النقيب بحرى وسام عباس يده ممسكة بمسدس مشهر ، عاد العدو يمر أمامهم وكأنه يستعرضهم ، ثم رفع المسدس الى منتصف جبهة الأول من اليسار . . طلقة . . سقط خطا خطوة ، طلقة ، سقط الثالث ، طلقة ، سقط الخامس ، طلقة ، أخرست الى الابد الذعر الانسانى الذى بدا واضحا على السابع ، قال النقيب بحرى وسام عباس الذى خاض فى الدم بعد ذلك خوضا ، انه ما رأى طوال حياته اشنع من ذلك قط ، اربعة قتلوا بالصدفة وبالاختيار

الحر من العدو ، واربعة بقوا على قيد الحياة بفضل مكان الوقوف ، امسك العدو بوقا يدويا ، وصاح طالبا صناديق الكوكاكولا قال ان هناك عددا من الضباط والجنود ، مقابل كل انسان زجاجة والا سيلقى الجميع مصير هؤلاء الاربعة ، عندما وصل الاربعة الاحياء الى الضفة الشرقية تقدم منهم ، كان أحدهم ينظر فى اتجاه واحد ، متفحم الوجنتين ، مقدد النظرات ، يستدير كيفما يوجه ، يقولون له أمش فيمشى ، ويطلبون منه الوقوف فيقف ، اذا ترك مكانه فلا يهتز مقدار شعرة فى انتظار من يقول له افعل كذا ، غير ان ما جرى لم يكن النهاية ، حوالى الثانية تجمع عدد كبير من النازحين القادمين من أعماق سيناء ، من غزة والعريش ، مرة أخرى عادت المعدية التابعة لهيئة قناة السويس ليفتدى كل انسان بزجاجة كوكاكولا ، لم ينقطع العويل والصراخ منذ ظهورهم غير أن العويل الذى ارتفع فى الساعة الثانية والثلث اختلف ، كانت الشمس تحولت الى النصف الآخر من السماء فأتاح ضوؤها الفرصة لبروز التفاصيل ، اوهكذا أدرك عندما بدت مستميتة فى شد تلك الفتاة من بين أيدى أربعة « عدو » ، ارتفع مدفع رشاش وهوى فوق جبهة الأم ، وخرس الصراخ الممدود ليستمر الصراخ المتقطع ، سحبوا الفتاة الى كشك من الصفيح المضلع لم يكشف وجوده الا فى هذه اللحظة ، لم يدر من أقامه ، ولا لأى غرض ، قبل وصولهم الى الكشك رفع بندقية تناولها من احد الجنود سدد الفوهة الى

رأس جندى عدو ، غير أن يدا امسكت معصمه ، ضابط برتبة مقدم ، طويل اللحيـة ، منهك الحـدقتين ، قـال . . . . سيقتلون كل هؤلاء ، واشار الى الواقفين فوق الضفـة الشرقيـة ، وإلى الواقفـين فوق الضفـة الغربية ، ساد صمت ، كان بداية لهذا الصمت الثقيل الذى استمر يراه كلما اقترب من القناة أو عبرها ، حوالى الثالثة خرجوا بالفتاة ، القوها فى قاع المعدية ، جاءت إلى الضفة الغربية بلا أم ، ممزقة ، مستـورة بشال رجل عجوز وبين فخذيها سالت دماء ساهم فى نزفها ستة عشر « عدو » عندما نظر اليها رأى وجها عمره عشرة او خمسة عشر ، وشفاه لم تلثم ولم تنفتح ، لماذا يحـدث هذا للنسـاء دائما فى الحـروب ؟ لماذا هن الضحيـة باستمرار ؟

فى تلك الأيام كان العقيد علاء يسأل نفسه ، ماذا نفعل ؟ لم يغادر مكتبه بادارة المخابرات لمدة اربعة أيام متصلة ، قرأ تقارير واردة ، وخطابـات صـادرة ، ونشرات معلومـات ، وملفات تتضمن مـا قـالتـه الاذاعـات المعـادية ، الاذاعـات الصديقـة ، طلب وكرر الـطلب لكى يذهب الى الجبهة ، قيل له ان الموقف غامض ، ويجب عليه البقـاء لممارسـة عمله كطبيب ، أخذه الضيق حتى كاد يبكى فسب ولعن فى غرفته عندما انفرد بنفسه ، وطافت به خواطر قاتمة ، كيف يوجد السبيل لمضيه بمفرده ، يعبر ويقاتل . وتسـاءل لأول مرة عن جـدوى استمرار عمله كـطبيب والبلد

تتدهور ، فى تلك الأيام جاءت انباء غير مطمئنة تقول ان لواء اسرائيليا مدرعا يتقدم على الطريق الساحلى المحاذى للبحر الابيض ، والهدف ، احتلال مدينة بورفؤاد ، وان العدو لن يلتزم بوقف اطلاق النار ، لم يكن هناك شيء مؤكد فعيون الاستطلاع مطفأة فى هذا الوقت بتلك المنطقة ، ما من احد يدرى بحقيقة ما يقال ، وبعد مناقشات واجتماعات تمت فى عدة جهات استقر الرأى على دفع دورية استطلاع محدودة العدد لاستطلاع الموقف ، ونقل ما قد يطرأ ، فتجلى الحقيقة ، وتكشف المستور من الانباء ، وفى نهاية هذه الاجتماعات قال ضابط كبير برتبة لواء ردا على تساؤل حول من يقوم بهذه المهمة ، انه يعرف ضابطا شجاعا يلح عليه منذ ايام للقيام بعمل فدائى ضد العدو المتقدم على المحاور فى سيناء ، ابلى بلاء حسنا فى حرب اليمن ، وحصل على ترقيتين استثنائيتين ، ويحمل وسام النجمة العسكرية ، واسمه معروف لكافة وحدات الصاعقة اذ انه من جيل المعلمين الأوائل بها ، وهو ضابط شجاع ، جسور ، قلبه جامد ، تساءل احد الضباط ، من تقصد يا سيدى ؟ فقال انه يقصد العقيد اركان حرب ابراهيم الرفاعى ، عندئذ أومأ الضباط المجتمعون ، وقالوا ، بلى ، لقد سمعنا عنه ، فقال الضابط ، وفى هذه الايام لا أرى أحسن منه ولا ابدى احدا عنه ، ولا اثق الا به ، ثم انها فرصتى لا تخلص من الحاحه ، وأدفع عنى ازعاجه ، اذ انه يود الذهاب الى الميدان ، ولا يقتنع

بما اسند اليه من مهام هنا ، قيل له ، حسنا اخترت ، ليبلغ بالمهمة ، بعد لحظات استدعى الضابط الكبير برتبة اللواء ، الرفاعى ، وعندما جاء بدا حزينا فى وقفته ، مزموم الشفتين ، منطفئ الابتسامة وفى عينيه أسى عظيم ، وكأنه لم يذق النوم من ليال طويلة ، وبدا يخفى من الحديث اكثر مما يقوله حتى لو تكلم ساعات ، قال له الضابط الكبير ، استعد للقيام بمهمة ، الم تطلب منى الذهاب الى الجبهة ، قال الرفاعى ، بلى فعلت ، قال الضابط الكبير ، جهز نفسك ، ثم بسط له الخريطة وأشار الى الخطوط والمنحنيات ، والدوائر الزرقاء والعلامات الحمراء ، والمربعات ، والاسهم ، طلب منه اليقظة والحذر ، وأخبره ان التعليمات تقضى بالا تشتبك أبدا ، ليستطلع وليرجع بالأخبار ، ليكشف الغموض ، اطرق لحظة ، وقال من ستصحب ؟ فقال الرفاعى إنه سيصحب من يقع عليه الاختيار ، ولكن من ناحيته هو يتقدم باسم الجاويش مصطفى ، أحد جنود الصاعقة الذين حاربوا معه ورافقوه ، فتساءل الضابط ، أين هو الآن ، قال الرفاعى إنه بمدرسة الصاعقة ، فرفع الضابط سماعة التليفون وطلب استدعاء مصطفى ، ثم قال إنه يقترح ضابط طبيب يعمل هنا فى الإدارة ، حصل على فرقة صاعقة ، وفرقة استطلاع ، وفرقة غطس ، فعل هذا وهو طبيب ، لكن لشغفه بالقتال وحبه للشقاوة يبدو انه نسى الطب ، ولم يبتسم الرفاعى لدعابة الضابط فلم يكن فى صدره مجال

للابتسام فى تلك الأيام ، بعد لحظات ، دخل علاء إلى الغرفة تسبقه نظراته الحادة ، وللوهلة الأولى أدرك الرفاعى أنه بازاء مقاتل لم يسبق له رؤ يته ، لكنه اوتى حاسة فريدة ، وقدرة عجيبة على التقاط جوهر الآخرين ، لم يظهر ذلك ابدا ، ولكن عرف هذا عنه ، مد علاء كفا كبيرة ، طويلة الاصابع ، صافح الرفاعى ، وقال انه سمع عنه ، لكن لم يسعده الحظ بلقائه ، وهنا قال الضابط كبير الرتبة ، ان الوقت يجرى ، وعلى الرفاعى أن يعطى « تمام » فى الخامسة عليه ان يختار عددا محدودا من الجنود ، وان يحدد معداته ، وان يستعد للتحرك بعد آخر ضوء ، وعندما سألوه ، أى طريق سيسلك ؟ قال انه سيتخذ الطريق المحاذى للقناة ، قاد السيارة عبد المؤمن ، إلى جواره الرفاعى ، وخلفهما علاء ، ومصطفى ، وجندى من الصاعقة اسمه أبو الفضل ، وجندى آخر اسمه الجرجاوى ، فى تلك الأيام كانت كثافة الحركة تمضى فى اتجاه معاكس لطريقهم ، الكل يعود من سيناء ، عربات تحمل معدات مهشمة ، يتعلق بها جنود مرهقون ، لم تخلع احذيتهم منذ ايام ، والمدافع مكشوفة الفوهات ، الكل يعود والرفاعى ذاهب ، لم يتبادل كلمات كثيرة مع من صحبوه ، لكنه ادرك أن شيئا بدأ ، وان امرا لا تدركه عين ، ولا يحيط به فهم قد ولد ، لم يدرك طبيعته ، ولم يفسر ماهيته ، لكنه مع الحركة انهى حالة التوحد ، وبدأ يقهر الكآبة ، لم يعد يواجه احزانه وحيدا ، كأنه يعرف علاء منذ

سنوات ، عندما عبرا القناة الى بور فؤاد نظر الى الأفق حيث السماء والبحر يلتقيان ، وقال لنفسه ، تلك أيام تتقرر فيها المصائر الكبار صباح اليوم. التالى قد ضم تقريره إلى الضباط كبير الرتبة وعندما آذن لقاؤهما انتهاء ، اقترح اقتراحا محددا ، هو القيام بعمليات محدودة شرق القناة ، أعمال فى الخفاء ، لكن ستعرفها القوات المسلحة ، الهدف منها بث قدر من الثقة ، أعمال محدودة لكن خارقة ، ثم قال انه يعرف الرجال الذين سيقومون بها ، اصغى الضابط كبير الرتبة ، وعد بنقل الاقتراح فورا ، فى ذلك اليوم اطل الرفاعى على الصحراء الممتدة ، لكم أحس بالألم عندما خطا حذرا فوق أرض طالما جال وصال فوقها ، لا يستطيع أن يمضى الآن اليها الا متسللا ، سيحول دونه عدو ، لكن الجبهات لا تنتهى بالنسبة للمهزوم ، ما أكثر الجبهات التى يمكنه أن يحارب فيها ، يبدو الجسد هائلا ، قويا ، لكن اكتشاف نقاط الوهن وتسديد ما يوجع ويؤلم ويفرى الحشاء ، الصراع لا يدور فقط ضد هياكل خرسانية ، وحصون ، ودبابات ، ومدافع سريعة ، واخرى ثقيلة ، الصراع يجب ان يشن ضد هذا الخور فى النفوس ، الثقة التى اهتزت وتدلت مهتزة فى بئر القلوب ، بالأمس قال لضابط برتبة نقيب ، سنقوم من جديد ، نظر اليه الضابط بعينين منكسرتين ؛ هذه الانحناءة الخفيفة التى تجعل مساحة العنق اكثر مما هى عليه ، يبدو معها متأهبا للصفع ما منع الضابط من الرد الصريح الا اللياقة

التى تقتضيها التقاليد ، ابدى ما يبطنه فى نظرة آلمت الرفاعى واحدثت به جرحا لم تسببه اداة من صنع بشر ، انما احدثه نيزك هوى واحترق به جدار القلب تلك النظرة المنكسرة هدف ، كيف تتحول من نقيض الى آخر لكن النظرة وما تعنيه ليست قاصرة على العينين ، الم يرها فى كل ما يحيطه ، الم ير الشوارع منكفئة ، والبيوت مطرقة ولولا جهد من أعمدة الخرسانة لأقعت فوق الأرض من الخجل ، ألم يتغير لون السماء ، الم يبرد قرص الشمس قبل الأوان ؟ الم تتحول سمات يونيو الليلية الى وخزات تأتى بالهم . وتقتات منها البلايا ، الم يتأثر الود المرسل من العينين الى العينين ؟ المرارة فى اللقمة ، ورشفة الماء لم تعد مجدية ، كيف يغرس الخنجر فيها لا يمسك بيد ، وما يستعصى على الأبصار ؟ بعد العودة ادرك انه يلوذ بعلاء وأن علاء يستظل به ، أما مصطفى وأبو الفضل فثمة ما يشده اليهما ، هؤلاء هم الذين لا يشعر معهم الانسان بخوف اذا فاجأه الموت ، ما قضوه من وقت فى هذه المنطقة التى يحدها البحر المتوسط من ناحية وبحيرة البردويل من ناحية يشبه عمرا ، قال علاء انه ظل طبيبا الى اللحظة التى دمر فيها الطيران فوق الممرات ، أشار الى الصحراء ، فقال انه متفرغ للعدو ، اما هو واما هم ، وقال ان العالم لا يتسع لوجودهم معه .

فى اليوم التالى لليوم التالى لليوم الذى تم فيه الاستطلاع قال الضابط كبير الرتبة ان موافقة مبدئية تمت ، بمعنى ادق ، لقد التقى اقتراحه بالنوايا

الموجودة ، وأن الكثيرين ابدوا ارتياحا لتصدى الرفاعى لهذه المهمة وإن ضباطاً كبيراً من هيئة الأركان قال إن الرفاعى يحفظ سيناء عن ظهر قلب ، وانه قام بالعديد من الدوريات فى صحارى مصر ، وعندما يعرف هضاب الصحراء الشرقية ووديان الصحراء الغربية ، وعندما تتوه دورية فى الصحراء فافضل مقتف للاثر هو الرفاعى ، وانه يعرف المدن من اضوائها عندما تبدو للمحلق بالطائرة ، ومن أهلة مآذنها ومبانيها ، كما يعرف المحافظات من تعرجات النيل وضيق واتساع المساحة الخضراء ، فى الهليوكبتر يعرف بعدكم من الثوانى ستشهق قمة جبلية ، وأى الممرات تخلو من دوامات الهواء ، يشم هبوب العاصفة ، ويدرك من لون السماء متى يجيىء المطر ؟ قال الضابط بهيئة الاركان ان الرفاعى قلبه اطلس حى مصر .

منذ هذه اللحظة لم يهدأ ، وما اعتمل داخله صار يمور خارجه ، بدأ فى تحديد الاهداف ، جاء بالخرائط ، والمعدات ، وصباح أحد الايام مضى الى سلاح المهمات ، وشرح كل ما يريده ، ورسم بخط يده تصوره لما ستكون عليه ملابس المقاتل جنديا كان أو ضابطا ، وحدد عدد الجيوب ، وخصص كل جيب لاحتواء شىء من ادوات القتال ، كما أمضى ساعات طوال فى مناقشة بعض انواع الاسلحة ، ايهم اصلح للضرب من قريب ، أى الاسلحة اصلح للقصف من بعيد ، وناقش بعض المتخصصين فى الكلية الفنية العسكرية وأشار بيده الى أجزاء بعض الاسلحة ، وتساءل :

لماذا لا يبدل موضع هذه القطعة بتلك ؟ كما درس اجزاء الهليوكبتر واقترح اضافة بعض التعديلات الممكن ادخالها على اجسام الطائرات فى ورش سلاح الجو ، أثناء ذلك مضى الى سيناء متسللا للمرةالثانية ، وقام مع علاء ومصطفى وابو الفضل وضابط برتبة رائد انضم اليهم اسمه عصام الدالى ، فجروا مخاذن الذخيرة التى تركتها القوات المصرية ، وبدأ الانفجار فى البداية كقنبلة ذرية صغيرة ، وشوهد اللهب من مسافات بعيدة ، واستمرت الانفجارات ساعات طوالا ، فى نفس الوقت اجرى اتصالات لضم بعض المقاتلين إليه ، وكان علاءصديقا لضابط فى البحرية برتبة مقدم ، اتصل به ، وسعى اليه ، ورشح الضابط شابا ذكيا شجاعا تخصص فى عمليات الاستطلاع البحرى اسمه وسام عباس ، ومساعد اسمه ابو الحسن ، وصفه بانه وحش حقيقى ، قوى ، من الناس المكافحين ، الذين بنوا أنفسهم بسواعدهم تحدث عنه ، وأفاض فى الحديث ، فقال انه كان غطاسا بشاطىء كيلو باترا ، وكان يراقب البحر حتى لا يبتلع احد المصطافين ، لم يرض عن عمله ، اقترح عليه البعض ان يتطوع ، فتطوع ، حدث هذا منذ عشر سنوات ، وخلال هذه السنوات حصل ابو الحسن على فرقة غطس ، وفرقة ضفادع بشرية ، وبجهده استطاع أن يفوز ببطولة القوات المسلحة للياقة البدنية منذ عامين ، وتزوج وانجب طفلة منذ عام واحد .

جاء هؤلاء ، وجاء آخرون ، وشد الرفاعى على يد وسام ، وقال له ان العمل سيتم فى البحر ، وانه يريده رقيبا على البر وعلى البحر ، وراصدا لسرعة الامواج فى القناة ، وخليج السويس ، وعالما بالمد والجزر ، ومواقع سفن العدو ، وتصميمات مرافئه ، وما يضيفه الى مراسيه من تحصينات ، ومواعيد تفجير الألغام الليلية المضادة للضفادع البشرية ، كما طلب منه ان يعلم من لا يعلم حركة الموج ، وكيف يعرف الانسان حركة الرياح ، ومواقع النجوم فى السماء ، قال انهم لن يصلوا الى العدو عبر فراغ انما سيصارعون امواجا كالجبال وسيحاربون الرياح ، ويجب الا تضللهم النجوم ، وان يتآخوا مع البرد والحر والجوع ، وان يأمنوا المفاجأة ، وان يصغوا الى همس العدو .

فيتلك الايام نشط الرفاعى ، وقال ابو الحسن يوما لنفسه ، أنه يبدو كإنسان قصير العمر يريد أن ينجز العظيم من الأمور قبل رحيله ، وقال عصام لنفسه إنه إنسان لا يهدأ ، ولا يمكن رؤيته نائما ، فى تلك الأيام ضاق صدره لأن الليل لا يتسع ، ولان النهار لا يؤجل رحيله ، وبدا له ان الانسان مهما فعل فلن يوقف أو يبطىء من زحف الساعات وتوالى الدقائق ، ادرك انه محصور فى مساحة زمنية يجب ان ينجز فيها كل ما قرر ، كان يريد أن يفعل كل شىء فى أقصر زمن ، يريد أن يقرأ تقارير الاستطلاع ، ثم يستطلع بنفسه ان يشرف على التدريب ، ويتابع

الرجال ، ينتقل ، يهاحم ، يعود كثيرا ما سأل نفسه قبل النوم ، هل يكفى العمر لما أريد ؟ كثيرا ما فوجىء بنفسه حائرا لا يدرى بأى شىء يبدأ ، كمن تزاحمت عليه الافكار فجأة فى لحظة يود لو تمهلت الايام ، فى لحظة أخرى تمنى لو اسرع ايقاع الزمن ، فى لحظة اخرى تساءل لماذا لا يصبح للزمن ايقاع متغير فيسرع ويبطىء ، صحب الرجال الى صحراء دهشور ، والى اماكن لم تطرق من قبل فى الصحراء الشرقية ، والى جبال البحر الاحمر ، الى جبل الجلالة ، الى الصحراء الغربية ، اشرف على بناء دشمة تشبه تلك الدشمة التى اقامها العدو فى منطقة الشط واطلق عليها التبة المسحورة ، تم بناء الدشمة على حافة ترعة تشبه القناة بالقرب من القناطر الخيرية ، اكد وسام ان سرعة المياه فيها تشبه الى حد كبير سرعة المياه ليلا فى القناة ، طار معهم فى الأليوشن ونزلوا من السماء الى الأرض نهارا ، وقفزوا من الانتينوف فى منتصف الليل ، غطسوا الى أعماق البحر الأحمر ، وسددوا بنادق الحراب تحت الماء فى جوف البحر الأحمر ، لفت كل منهم تلك الوحدة الباردة التى تطبق على الانسان داخل الاعماق الباردة البعيدة عندما يصبح عالما مستقلا بذاته ، عليه تحديد الاتجاه ، واتخاذ القرار ، والانتباه الى العمق الذى لا عمق بعده ، وعندما امكن للرجال ان يقفزوا من الهليو كبترات بدون ان تلامس العجلات سطح الارض ابدى ارتياحا ، وعندما عاد مع وسام الى بور سعيد بعد استطلاع موقع رمانة

وقف يتأمل النواريس البيضاء بعد ان قال له وسام ان النوارس تواجه مهب الرياح وتمكن معرفة مصدر هبوطها من الجهة التى لولى النوارس منقـاره اليها ، اضمر اعجابا بالنوارس لطول ما تقطعه من مسافات ، امكانيات لا حدود لها تضمها أجسام نحيلة . . وفى يوم آخر طلب من وسام ان يجمع له معلومات عن السفينة بيت شيفع ، ولم يسأل وسام عما لم يحط به علما ، لماذا بيت شيفع بالذات ؟ على فترات زمنية متباعدة صار الرفاعى يسأل ، ما أخبار بيت شيفع الآن ؟ اين هى ؟ اين ترسو ؟ بعد حوالى سنة اتم خطة محكمة لاغراقها بواسطة اعتراض طريقها بلغم بحرى ثقيل عند نقطة معينة من الخليج اعتادت بيت شيفع التمهل عندها اثناء رحلاتها المنتظمة من ايلات الى سدر ، غير ان ذلك لم يتم لأسباب ما ، بعد أن تابع حركـة الدوريات وتوقيت مرورها بعدة نقاط على الطريق الموازى للقنـاة ، قرر الهجوم على دورية اسرائيلية تتحرك بين نقطة لسان التمساح القوية ونقطة رقم ٦ ، حدد الهدف ، احضار اسير حى ، فى الساعة السادسة صباحا وعشر دقائق فتحت نيران المدافع الاوتوماتيكية اسرع علاء والجرجاوى الى داخل العربة ، فى تلك اللحظة قفز جندى « عدو » ضخم الجثة ، بندقية لم تفارق كتفه ، لم يفكر فى اشهارها ، فى وثبات سريعة لحقه الرفاعى ، لف شعر رأسه الطويل حول يده ، بحبـل قصير أوثق يـديه خلف ظهـره ، اختلطت ملامح الجندى العدو ، تكسرت كلمات عـربية بـين شفتيه ،

لهجتها شامية ، « لا تذبحنى بخنجر . . اضربنى بالرصاص » ، كان صوته أجوف ، باردا ، دفعه الرفاعى باتجاه القناة ، بدأت الدانات الاسرائيلية تنفجر حولهم ، استمر تقدمهم باتجاه المنطقة التى ستأتى اليها القوارب عند ضفة القناة المرتفعة وقف الرفاعى الى جواره مصطفى يبحثان عن القارب ، استمر اقتراب علاء والرجال منها ، عندما تأكد الجندى العدو من انهما لن يقتلاه ، بدا مرعوبا من دانات المدفعية الاسرائيلية التى راح بعضها يتساقط فى عرض القناة ، تساءل . متى تعبرون إلى الضفة الغربية ؟ متى تعودون ؟ كان يتعجل العبور معهم التماسا للآمان ، بدا أكثر منهم الحاحا ، عندما رآه الجنود فى المواقع المواجهة ، تساءل أحدهم ، كيف احتمل القارب هذا الثقل كله ، اندفع جاويش باتجاهه رافعا قبضته ، زعق الرفاعى آمرا بالعودة ، تعلقت عينا الجندى العدو بالرفاعى ، بعد لحظات همس ضابط الموقع « أعذرهم يا أفندم » .

حدث مساء اليوم التالى ان جاء جندى اسمه زيتون الى مقر قيادة المجموعة يطلب لقاء الرفاعى ، دخل المقر مبتسما بهدوء ، وكان كم سترته الايسر الخاوى قد أدخل فى جيب بنطلونه ، قال هل نسيتنى يا أفندم ؟ فقال ، وهل ينسى الرفاعى من عمل معه ؟ بسرعة أدرك الرفاعى لماذا جاء زيتون ؟ سأله عن أحواله قال زيتون انه يذكر تلك الايام فى العريش ويحن

اليهـا ؟ ولكنه يضيق الآن لأنهم فى الـوحدة يعـاملونه كشىء زائـد عن الحاجة ، قال الرفاعى لنفسه ، ان زيتون يمكن الاعتماد عليـه ، لماذا لم يفكر فيه ؟ لام نفسه لأنه لم يستدع زيتون برغم انه سمع كثيرا فى مدرسة الصاعقة عن قدرته على استخدام الخنجر بيده الوحيدة ، لن يجعله يصل الى الحظة التى يعرض فيها نفسه ، قال بسرعة ،

لماذا لا تجىء معنا ؟

تابع بسرعة . .

إننا فى حاجة إليك هنا . . يجب ان تجىء لتقاتل . .

لأول مرة يخلو وجه زيتون من الابتسامة ، ما فوجىء به لم يدع الفرصة لأى انفعال آخر بالنفاذ الى ملامحه ، قام ، ضرب الأرض بقدمه ، رفع يده السليمة بتحية عسكرية ، لم يستدع علاء فى هذه اللحظة خشية أى تعليق لا يستطيع ان يمنع نفسه عن ابدائه ، كتب بنفسه خطاب الانتداب ، بعد ثلاثة أيام جاء زيتون ، فى اليوم الأول استدعاه الرفاعى ، قال ضاحكا . .

« إن مجيئك فأل خير علينا . . سنقـوم الليلة بعملية سيتحـدث عنها الكثيرون فيها بعد . . ستطلع معنا . . » اما أمر هذه العملية فيرجع الى عدة أيام عندما جاءت عدة تقارير مختلفة من الجبهة تشير الى ظهور انواع جديدة من الصـواريخ لـدى العدو ، وان هـذه الانواع تثـير تساؤلات

عديدة ، خاصة انها منصوبة فى الخلاء بعيدا عن مواقع العدو الثابتة ، ودشمة ، رفع بيديه الصور الملتقطة وبدت المعالم باهتة ، هنا قال الرفاعى . .

« اقترح ان نعبر وان ندرس هذه الصواريخ عن قرب » . . غير ان الرفاعى اضمر فى نفسه أمرا ، لم يكشف عنه ، ولم يبح به لأقرب الناس اليه ، فقد يبدو الهدف خياليا ، من الصعب تحقيقه ، لكن أحوال الناس فى حاجة الى أعمال فيها وهج لخيال وجرأة التخطيط ، والقدرة على التنفيذ ، عندما تسرى اخبار عملية كهذه سيفكر هذا الجندى الواقف فى قلب الوحشة الجبلية برأس غارب ، قام رجالنا بكذا وكذا ، جرعات من الثقة فى شرايين الرجال الذين يسمعون السباب ولا يردون ، ويرون العناق والقبل كل يوم سبت ، وعندما جزى صعيدى على شفتيه حتى ادماها ولم يعد لديه ما يجز عليه سدد الرصاصة ، وضع حدا للنشوة المقصودة ، حوكم ، وراح الاعتذار تلو الاعتذار عن طريق هيئة الرقابة ، وجاءت التعليمات بضرورة ضبط النفس ، المسموح به الآن هذه الأعمال التى تتم سرا ، والتى تذكرها الصحف منسوبة الى منظمة سيناء العربية .

ولما جاء الليل ، وبالقرب من مياه القناة شرح الرفاعى لعلاء وعصام وأبو الفضل ومصطفى وزيتون ما جال بخاطره ، أبدى علاء حماسا ، قال

الرفاعى انهم لن يصحبوا أى اسلحة نارية ، كل ما سيأخذونه معهم خناجر ومقصات كبيرة حادة ، الصمت هو ضمان نجاح هذه العملية ، ارتدوا ثياب الضفادع ، فى آخر موقع مطل على الماء ، اندفع ضابط شاب ، عانق الرفاعى ، عانق علاء ، قال ، ربنا معكم ، غابوا فى الظلام بعد لحظات ، رائحة الرمال القريبة من المياه تختلف عن رائحة الرمال فى الاماكن الخلفية من الشاطىء ، تختلف عن رمال الصحراء ، الاندفاع فى الماء موقوت بالثانية ، كما ان الأحساس بالزمن فى البحر يختلف عنه فى البر ، حقول الالغام مرصودة لكن المفاجأة قد تحدث فى أى لحظة ، الخطى تهتدى بالنجوم البعيدة الحذر حاد ، لا يحملون أى أسلحة نارية ، الرفاعى يتقدم المجموعة ، كل حواسه موجهة للرصد والانذار ، توقف ، أصوات قريبة تتضح ، حديث متبادل بالعبرية ، صمت ، ضحكة ، عبارة تلفظ ، صمت ، صمت ، صمت ثم شخير ، فوق الارض المستوية بدت الصواريخ ، تدفق الرفاعى منسابا فوق الرمال ، لم يتوقف الا عند السلك الممتد الذى يصل الصاروخ بقاعدة الاطلاق ، فتح المقص ، اطبق على السلك ، تقدم وسام ، لم يلق عناء كبيرا فى تحريك الصاروخ ثم حمله ، ارتفاعه كطفل فى التاسعة .

فى مقر الوحدة المرابطة على الضفة الغربية حملق الضابط الى الصواريخ الثلاثة ، جلس ابو الفضل وزيتون فوق صندوق ذخيرة فارغ ، رشفوا

الشاى ، الح الضابط الشاب فى تقديم عشاء ، لكن الرفاعى قال انهم ينتظرون هذه الصواريخ فى القاهرة ، خرج من الملجأ الذى اطلق عليه الجنود اسم « الفيلا » فى الشرق كانوا معزولين ، يحيطهم عدو ، وصلوا الى الضفة الغربية بدوا كأنهم يدخلون تحت غطاء فى ليلة باردة ، تـذكر حكاية قرأها عن القبائل الضاربة فى الصحراء بحثا عن الماء ، يتقدمها دليل يمتطى جملا ، عند عثوره على البئر أو النبع يصيح مناديا أهله ، يجب أن يكون حاد البصر ، فذ الملاحظة ، حتى لا يخيل إليه ما هو غير موجود ، عندئذ يهلك القوم . .

فى الساعات الاولى من الصباح قال الضابط كبير الرتبة . . هذا أمر لا يصدق . . ليت كل القوات المسلحة تعرف ما قمتم به . .

فى نفس اللحظة اكد جندى استطلاع لزميله . .

عبروا من هنا . . ورأيتهم بالصواريخ عند العودة . .

بعد يومين سأل الرفاعى وسام . .

لم يذكروا شيئا بالطبع . .

ضحك وسام . .

ماذا سيقولون . . فى مثل هذه الأمور تخرس انفاسهم .

قال الرفاعى . .

ونحن من ناحيتنا لا حس ولا خبر . . ولا من شاف ولا من درى . .

قال علاء . .

لو اغرنا على الموقع لاحدثنا خسائر لا بأس بها . . سمعت شخير النائمين بأذنى . .

قال وسام مخاطبا علاء . .

يا سلام يا أفندم لو شفت المنظر فى المنطقة صباح اليوم التالى . . عربات تروح وعربات تجىء . . وضباط من سلاح المهندسين ، يفحصون ، ويتناقشون ، ثم يقفون كعلامات الاستفهام . .

قال علاء مشيرا إلى الخريطة . .

يجب أن يغوصوا حتى الركب فى الدم . .

وحدث فى الايام التالية أن اجرى الرفاعى عدة اتصالات وقرأ عددا من التقارير ، واضاف العديد من الملاحظات الى سبعين ملفا فى الخزانة السرية ، ضم كل ملف تخطيطا أوليا لعمليات مقترحة ضد هدف معين ، وكافة المعلومات المتاحة عن ذلك الهدف ، كما يضم تقارير عن المعدات المتوفرة ، وأخرى مطلوبة ، وكفاءة السلاح والتعديلات المقترحة ، وكفاءات العربات والمعدات ، أما كفاءة الرجال فهذا ما لم يخطه فى ورق ،

احتفظ بذلك لنفسه ، موضع كل منهم فى خطط الهجوم لم يتحدد تلقائيا ، انما برز عبر قطارات متوالية من الليالى ، فى الصحراء ، فى الدوريات ، حول موائد الطعام ، فى مداهمات المرض ، فى تلك الفترة اصبح عليما بنوعية الآهة التى تصدر عن كل منهم أثناء نومه ، اصبح يدرك ايقاع الخطى فى جوف الظلام ، ما يفصل الخطوة عن الخطوة ، اتساع الحدقة اتجاه النظرة ، يعرف من يرهف السمع ، من يندفع قبل الاوان من يخترق التوقيت الفريد ، عند الهجوم على نقطة البلاح شرق ، دمدم رشاش نصف بوصة بسرعة ، شطح ونطح فى الافراد ، اخفى بمهارة كاللحظة التى ينتهى فيها العمر ، والارض التى سيموت فوقها الانسان ولا يدرى اين هى ؟ ارتفعت ذراع علاء ، بدت قامته مكشوفة ، ارتمى عليه ، انبطحا ، صوب القنبلة باتجاه المزغل الضيق فى مقدمة الدشمة كعين وحيدة فى وجه آدمى ، لكل مقاتل مهمة ، ولكل تغير طارىء ، موقف يناسبه وانسان يواجهه .

عندما خرج الجميع تقريبا إلى اجازة بعد العودة من طابور سير فى وادى قنا المزحوم بالعقارب والثعابين لم يتبق إلا وسام كضابط نوبتجى ، والجرجاوى المبتسم دائما ، غير انه لمح ابو الفضل يعبر أرض الطابور متجها الى عنبر النوم ، بدا وحيدا ، سأل وسام عنه ، قال وسام ان ابو الفضل لن يخرج هذا اليوم ، رفع التليفون ، جاء صوت نادية هادئا ، اعتذر عن

عودته ، قال انه سيتأخر قليلا ، قالت انها ستنتظره ، سأل ، هـل ليلى مستيقظة ؟ قالت انها نائمة ، قال وسامح ؟ قالت انه يلعب الكرة مع ابناء الجيران امام الشقة ، كان صوتها مستويا كطريق مستقيم مؤ د الى هدف واضح ، ذات يوم قالت انها تعلمت معه الانتظار ، بعد عودته من اليمن رأى علبة سجائر فوق المنضدة الصغيرة المجاورة للسريـر ، فوق العلبـة ولاعة مستطيلة الحجم ، أمسكهـا ضاحكـا ، قال انـه لا يدخن فكيف سيدعوها الى التدخين ؟ انه لا يجيد امساك العلبة ثم طرق عليها بأصبعه حتى تطل منها مقدمة سيجارة ، ابتسمت قائلة إن الانتظار مر ، وأن سمير وسامى كانا لا يمران عليها اياما فتقضى الوقت الى جوار ليلى ، ترقبها فى نومها ، وتداعبها فى صحوها ، وأحيانا تدير مؤشر الراديو ، وعندما تكف أصوات العالم بعد منتصف الليل بمسافة يلفها ضيق ، طلبت من سمير الرفاعى ان يأتى لها بعلبة سجائر ، سألها ، أى الانواع تفضلين ، قالت انها لا تدرى ، نزل وعاد بهذا النوع الذى يحوى مذاقه همسة نعناع ، اهداها ولاعة ، قالت ضاحكة ، لكننى غير مدمنة . .

وضع السماعة ، يتخيل ملامحها الهـادئة ثم جلوسهـا بركن الصـالة واستئناف عملها فى البلوفر الأخضر ، يذكر انه حدثها عن أبو الفضل ، كان فى زيارة لكتيبة صاعقة يقودها عادل زميله ، قدمه عـادل قائـلا انه وحش حقيقى ، بعد خروجه قال عادل انه مقطوع من شجرة ، أجازته

يقضيها فى القشلاق وقلبه ميت ، الرفاعى لا يعجبه هذا التعبير ، الموصون بموت القلب من أكثر خفقا للحياة سعى الى انضمام ابو الفضل اليه ، قبل مجيئه قرأ ملفه ، أبو الفضل على سلامة ، من مواليد الطلحيات ، مركز طهطا ، التاسع من ابريل عام الف وتسعمائة وأربعة وأربعين ، تـاريخ التطوع ، الف وتسعمائة وثلاثة وستين ، أى عندما اتم السن القانونيـة للتطوع ، الرغبة عند التطوع . الصاعقة . سأل الرفاعى . .

« منذ متى لم ترعم حسين ؟ »

« اكثر من سنة . . »

ابدى الرفاعى دهشة ، قال . .

اليس هذا تقصيرا منك ؟

لم يجب ، قال الرفاعى . .

كم يوما تكفيك لتذهب وتعود من دير مواس وتقضى هناك يومين . . أسبوعا مثلا ؟

أومأ أبو الفضل برأسه . قال الرفاعى . .

اعتبر نفسك فى اجازة من الليلة . . هناك قطار يقوم فى العاشرة . .

مد يده الى درج المكتب ، سحب عددا من الاوراق المالية .

خـذ معك « زيـارة » جيـدة . . وعنـدمـا تعـود بـالفـطير احتفظ لى بنصيبى . .

بدا أبو الفضل خجلا ، قال . . لكن يا أفندم . أشار الرفاعى بيد ممتدة حاسما المناقشة . .

الى اول قطار بلا مناقشة . .

عندما التقى الرفاعى به لأول مرة منذ سنوات طلب منه ان يحدثه عن بلدته ، قال الرفاعى انه رأى طهطا لكنه لم ير الطليحات ، عاش فى كثير من محافظات الوجه القبلى وذلك لعمل والده مفتشا بوزارة الداخلية وتنقله فى بلاد مختلفة ، ثم خدمته بوحدات من الجيش تنقلت كثيـرا فى انحاء مصر ، ولقيامه بالعديد من دوريات الاستطلاع ، عندما احس الرفاعى ان الجمـود يذوب بـين الضابط والجنـدى سألـه عن آخر مـرة رأى فيها الطليحات ؟ قال أبو الفضل ان ذلك جرى منذ سنوات عديدة ، اكثر من خمسة عشر عاما ، قال ابو الفضل انه لم يره ابوه ، غادر الدنيا وله من العمر اسبوع ، لهذا لا يعرف أى شىء عن ملامحه ، فالناس وقتئذ لم يعتـادوا التصوير ، أما أمه فاحتوته حتى التاسعة ، يذكرها وكأنها تقف أمامه الآن ، لم تنجب غيره ، رفضت كل من تقدم اليها ، شنع عليها الناس وافتروا خاصة اعمامه ، كانت تقول له دائما احذر اعمامك ، فى تلك السنوات

سمع انهم ينوون قتله حدث ذلك بسبب فدان ونصف من الطين وبعض نخلات ، بعد رحيل امه خلت الدنيا ، عند عودته من المدفن تحت الجبل ادرك انه بلا صاحب أو سند ، وعندما جلس تحت سقف الخوص بكى لأن أمه جدلته بيديها ورتقت ثقوبا تخللته بين حين وحين ، صباح يوم ثلاثاء قال له عمه الكبير ، تعال نذهب الى طهطالنهى بعض اجراءات الميراث ، أمسك به من يده اليسرى ، مشيا على الطريق المؤدى للنهر ، غير انهم لم يمضوا مباشرة الى مرسى القوارب ، عندما ضغطت قبضة عمه على رسغه لغ فى قلبه خوف خطر له ان يحاول الافلات ، لكن كيف ، إلى أين ؟ عند منحنى الطريق ظهر فجأة جاويش النقطة ، كان قادما من الجهة المقابلة ممسكا بعصا قصيرة ، تبادل التحية مع عمه ، بعد خطوة التفت الى الخلف ، صرخ . عم . الحقنى يا عم . . تساءل الجاويش ، الى اين ؟ قال العم انهما ذاهبان الى أحد الاقارب ، هنا عض ابو الفضل يدعمه وتوارى خلف الجاويش صائحا ، انه ينوى رميه فى النهر ، أبدى الجاويش حسين شكا ، صحب أبو الفضل الى النقطة ، تحدثت البلدة فيما جرى وقال الناس ان الجاويش ظهر فى اللحظة المناسبة وان عمرا جديدا كتب لابو الفضل ، ولكن الجاويش لا يستطيع حمايته حتى النهاية ، حار فيما يفعل ، ابقاه فى النقطة يومين ، فى الفجر صحبه حتى القرية التالية ، أعطاه عشرة جنيهات ، وضعهم فى منديل ثم ربطه حول ذراعه ، حذره

من اولاد الحرام ، قال انه لم ينجب ابدا لكنه يعتبر أبو الفضل ابنه ، ليرسل اليه بأخباره بين الحين والآخر ، منذ ذلك اليوم تلقفته الدنيا ، تقلب فى مهن عديدة ، لم يعد الى البلدة ، لم يسأل عنه أحد ولم يسأل عن أحد ، قال ان عائلته فى الدنيا هذا الجاويش الذى احيل الى المعاش منذ سنوات ، استقر ببلدته دير مواس يزرع مساحة قليلة من الارض ، يزوره على فترات متباعدة كلما سمحت الفرصة . .

بعد أن اصغى الرفاعى إليه فى تلك الليلة شعر انه ينضم اليه من جديد ، بدأ يعتبره من الرجال الذين سيظلون على مقربة منه لحظة الاقتحام ، تماما كمصطفى الذى تشابكت سنينه مع سنين الرفاعى ، فى اليوم التالى اتصل بالعقيد علاء ، جاء صوته صاخبا ، حادا ، قال انه يدعوه للذهاب الى الحسين ، يصليان الجمعة معا ، ثم يجلسان لتناول الشاى ، بعد الصلاة يتقدمان الى الضريح ، يعبران رقائق الضوء ، يطوفان على مهل بمثوى الشهيد ، يبدو الضجيج والهم نائما ، عندما يجىء الى المثوى فانه يزور محاربا قديما ، عرف النهاية فى الطريق ولم يتراجع خطوة واحدة فى طريق العودة والأمان ، فى الليل يطلب من صحبه ان ينصرفوا عنه فالمقصود هو ، والهدف هو ، لكنهم يبقون ، يزودون عنه ، سبعون واجهوا أربعة آلاف ، يقاتل حتى يقتل ، يمضى بصحبه علاء الى مقهى يطل على الميدان ، يتابعان حركة المارة ، لا تسترخى ملامح علاء ابدا ،

يرى فى اصغر المواقف التى تمر بالانسان عناصر معركة ، عندما يشترى الانسان شيئا الا يدور صراع بين البائع والمشترى ، عندما يحب الانسان امرأة ، الا يندفع ، ويهجم ، ويناور ، ويغضب ، ويرضى ، يقول دائما ان الحياة قتال مستمر ضد آلاف الاشياء ، فى هذا الهواء اخطار لو وعاها البشر لسقطوا هلعا .

قال الرفاعى انه من الضرورى الا تأخذهم دوامة التدريبات والعمليات . نظر علاء صامتا وفى عينيه استفهام ؟ قال الرفاعى ان من يواجهون الموت معا يجب ان يعيشوا حياتهم معا ، أومأ علاء ، قال الرفاعى انه يجب خروج المجموعة فى رحلات ، الاحتفال بأعياد الميلاد . أمور كهذه . . قال علاء ان هذا شيئا فشيئا بشكل تلقائى ، صمت لحظة ثم قال ، هل تعرف ان هناك زواجا سيتم فى المجموعة ، بدت دهشة فى عينى الرفاعى ، قال علاء ان الجرجاوى سيخطب اخت سعيد ، الجرجاوى من قنا ، وسعيد يعمل بمصانع اسكو ، عبر الاحاديث المتبادلة والمناجاة الليلية التى تسبق النوم ، عرف الجرجاوى ان لسعيد شقيقة ، قرأ الفاتحة وستتم الخطوبة قريبا ، قال الرفاعى انه لم يعرف ولم يقل له أحد ، بد سعيد بالخبر ، قال علاء ضاحكا ، وهل تريد ان تعرف كل شىء ، المجموعة حياة متكاملة الآن ولا يمكن الاحاطة بكل ما فى الحياة . . اليس كذلك ؟

قاما ، اقترح الرفاعى ان يذهبا الى والد الشهيد عبد الكريم ، اول شهداء المجموعة فوق الضفة الشرقية بمنطقة جبل مريم امام الاسماعيلية ، تحت مسجد قديم على ناصية حارة الميضئة فى الجمالية دكان خردوات خرج منه عم مراد العجوز ، قال انه عندما رآهما فكأنه رأى سعيدا ، صاح مناديا احد الصبية ليحضر الشاى ، قال علاء انهما قادمين من المقهى . . لكن الرفاعى ابدى رغبة فى شرب الشاى مع عم مراد سأل عن أى حاجة لعم مراد يرغب فى انجازها ، بعد تردد قال انه لا يستطيع مفارقة الدكان ، كما لا يعرف الطريق الى الادارة المختصة بتجديد البطاقة العلاجية التى تذهب بها والدة عبد الكريم الى مستشفى غمره العسكرى . . ، قاطعه الرفاعى ، هل البطاقة معك ؟ بحث فى أدراج المنضدة الخشبية القديمة اخرجها ملفوفة فى كيس من النايلون ، قال الرفاعى . . اذا لم احضرها انا اليك سيأتى بها عبد المؤمن بعد غد ، ابتسم الرجل عند انصرافهما ، قال . . لا تنسوا عمكم مراد يا أولاد . .

تساءل علاء . . إلى أين ؟ قال الرفاعى . إلى المجموعة ، فى المقر قابلهما المقدم توفيق :

« أريد أن القى نظرة على صور الاستطلاع الجوى الأخير . . »

دار توفيق بقامته الفارهة ، الضخمة حول المنضدة ، انه قليل الكلمات لكن اذا نطق فكأن سرية بأكملها تصيح ، لهذا يرجو الا يخاطبه

أحد أثناء التسلل على الضفة الاخرى ، لكن فى لحظات الهجوم يطلق صياحا أقسم علاء انه يشل العدو ، من هنا يسهل عليه استعمال خنجره معهم ، وقيل ان سمعته بدأت تنتشر فى مواقع العدو الأمامية ، المصرى ضخم الحجم ، انه رام ممتاز ورصاصته لا تخطى هدفها أبدا ، طلقته والقبر ، عندما بدأ قصف المدفعية المنتظم كمن فى مواجهة موقع رقم « ٦ » ، رصد جندى العدو ذا اللحية الذى لم يكف عن الصياح والصفير والسباب لمدة شهور من فوق برج الملاحظة ، عندما تثاءب جندى العدو ، قال توفيق لنفسه ، هذه آخر مرة لك ، وعندما اتكأ على الحاجز الخشبى للبرج ، لم يتبق الا دقيقتين على بداية القصف ، استقرت الدائرة الحمراء على منتصف الجبهة ، ضغط الزناد ، تردد الصدى ، لم يفارق مكانه ، تسلق جنديان السلم الخشبى المؤدى الى البرج ، وزعق جندى « عدو » مخاطبا شخصا ما عبر التليفون ، ثم ساد صمت لا تعرفه الا الاماكن الحدودية ، اصغى توفيق الى احتكاك الموجة بالموجة ، انتابته راحة ، اصر على ان يسقط هذا العدو طويل اللسان ، دوت ثلاثة انفجارات متتالية كأنها طرقات القدر .

قال الرفاعى ان الصور رائعة ، العمل جيد ورائع لابد ان الطيار عرض نفسه لمخاطر عديدة وقام بمناورات حادة حتى امكنه التقاط هذه الصور ، قواعد الهوك واضحة والطريق الرئيسى ، ومدخل الموقع الامامى ،

والمخرج الجانبى ، قال لعلاء انه يجب كتابة خطاب شكر الى قائد الاستطلاع الجوى ، انه لم يعرف هذا الطيار ، وربما لن يراه ، لكن هذا الشاب عرض نفسه للخطر ، انه يتأثر لتلك العلاقات التى تجسد المشاركة ، تهزه هذه العلاقات الخفية بمن لا يعرفهم ، يتأمل الناس فى الزحام ، يود لو مشى بينهم على مهل ، يتحدث الى هذا ، ويرد على ذاك ، لكنه دائما يعبر الطريق إما متجها لانجاز مهمة أو عائدا من مهمة وتبقى الرغبة مؤجلة . .

بعد ثمانية ايام انطلقت المجموعة باكملها فى الفجر والهدف هذه المنشأة التى حام فوقها الطيار الشجاع والتقط لها تلك الصور ، حدد موعد الهجوم فى الثامنة والنصف صباحا ، هجوم لن يسبقه تمهيد نيران ، الهدف سبق ان هوجم منذ اربعة أسابيع ، عند نهاية الطريق الصحراوى بدت الاشجار غارقة فى ضباب صباحى مبكر كاللبن ، عند كوبرى نفيشه قال ضابط المخابرات الحربية الذى وقف ينتظرهم ان التقارير الواردة من النقاط الامامية تشير الى حركة غير عادية ، كما صمتت الاتصالات اللاسلكية ، هناك احتمال بان العدو اكتشف المجموعة عند اقترابها من الاسماعيلية .

فى مواجهة الصباح الباكر وقف ، يداه تلامسان خصره ، انه اشبه بمن يعدو مسافة طويلة ثم يطلب منه التوقف فجأة وخط النهية على بعد متر

واحد ، هل يعود الرفاعى والمجموعة بأكملها لأن العدو اكتشفهم ؟ تسائل علاء . . ماذا يعنى هذا . . هل نرجع ؟ نظر اليه ، قال . . ومتى اتجهنا الى العدو وعدنا من منتصف الطريق ؟ اجرى فى ذهنه تعديلا طفيفا ، سيتم انزال القوارب من نقطة تقع الى شمال الموقع بحوالى مائتى متر ، ثم يقتربون بمحاذاة الساتر الرملى ، سيتحركون تحت العدو مباشرة ، حيث الرؤ ية بالنسبة له ميتة ، من ناحية أخرى يتمركز توفيق مع أربعة جنود من المجموعة فى أماكن متفرقة كقناصة ، ان القصف المدفعى يعنى الآن تأكد العدو من بدء عملية عبور ، القنص نشاط لا يثير ريبة ، ويبث رعبا خاصة فى نقاط الملاحظة . .

قال ضابط المدفعية الشاب . .

هناك طائرة مروحية تطير على عمق كيلو متر واحد من الحد الأمامى للعدو . .

فى البيروسكوب الأرضى رأى الرفاعى الطائرة ، بدت كذبابة معلقة فى الفراغ ، فوق الضفة الشرقية قرب المسافة جرار اصفر اللون ذا عجلات كاوتشوك ضخمة ، كان الهدوء ثقيلا كأن الحرب نائمة ، وبعد لحظات سيوقظونها ، اما ابراج الملاحظة فبدت كعلامات استفهام فى مواجهة النهار المقبل . . وتسائل الرفاعى عن الحركة منذ أول ضوء ، قال ضابط المدفعية

ان قائد السرية خرج فى السادسة والنصف وعاد منذ ربع ساعة ، وهـو يتناول افطاره الآن ، الجنود فى الموقع جدد ، جاءوا منذ ثلاثة ايام ولذلك فهم اكثر حذرا ، يتحركون بحساب ، ومعهم جندى اسود . .

فى التليفون ضحك قائد سرية الدفاع الجوى الملحقة بالكتيبة . . طبعا ، يمكن تطفيش هذه الدبابة الآن . .

سأل الرفاعى . .

هل اعتدتم اطلاق النار على هذه الطائرات . .

جاء الصوب عبر التليفون الميدانى . .

ليست أول طـائـرة يتم تـطفيشهـا . . وليست أول طـائـرة يتم اسقاطها . .

قال علاء . .

سيضربها الآن ؟

أومأ الرفاعى ثم امتد صمت مصحوب بترقب ، دوت طلقات سريعة منفجـرة فى الفـراغ ، المـدفعيـة المضـادة ، قـال عـلاء وهـو يحـرك البيروسكوب . .

ابن الكلب جرى . . هرب .

تم الاستطلاع النهائى ، بدأ التلقين الأخير ، جميع أفراد المجموعة يخرجون معا ، زيتون يتمنطق بخنجرين حادين ، عمر الطباخ مع مجموعة الاقتحام الثالثة ، جاء الى المجموعة كطباخ ، اسمر ، قصير ، كان يعمل بالهيلتون ، عندما تحدث العقيد سمير عنه ، قال انه سيرسل الى المجموعة احسن طباخ فى وحدات الصاعقة ، لزم عمر المطبخ ، عند عودة الرجال يجدون الوجبات الساخنة ، يبدو مستغرقا جدا فى عمله ، غير انه بدأ فجأة يتذمر ، كيف يخرج الجميع ويبقى فى المطبخ ؟ تقدم اكثر من مرة يطلب الاشتراك فى العمليات ، منذ اربعة شهور ابلغ بأنه اتم تدريب عدد من الجنود على الطهى المتقن ، بدأ يشترك فى تدريبات المجموعة ، ارسله الرفاعى مع مصطفى الى الضفة الشرقية ، قضيا ليلا كاملا ونهارا ، انه التدريب فى قلب العدو كما يسميه الرفاعى ، خلاله لا يخوض الجندى قتالا الا اذا أجبرته الظروف ، ولكنه يتعرف الى الارض والمناخ والمشاعر ، بعد عودته قال مصطفى ان قلبه جامد ، وجرىء ، ابو الفضل يختبر مدفعه ، لم تسعفه ذاكرته عندما حاول ان يحدد الزمن الذى تساءل فيه الرفاعى خلال حوار جرى مع احد المجندين الجدد . .

كم مرة يموت الانسان .

قال المجند . .

مرة . .

امتدت ذراع الرفاعى الى الشرق . . قال
اذن . . لتكن هذه المرة .

كلما خرج أبو الفضل الى عملية يقول لنفسه ، انها هذه المرة ، يوقن انه لن يعود وسيصبح جملة فى أحاديثهم ، ما يتمناه ان يذكره الرفاعى « كان مقاتلا لا يعوض » قبل استشهاده احدث خسائر فادحة بالعدو ، لم يذهب هدرا ، لن يعبر الدنيا هكذا ، سيترك أثرا لن ينساه الرجال ، قال العقيد علاء ان الانسان لا يختار الطريقة التى يموت بها ، صحيح ، لكنه سيبذل كل ما لديه حتى لا يروح فى صمت ، وعندما تحين المرة التى لا تكرار لها فيكفيه أنه ذهب بين هؤلاء الذين أحبوه ، كأنه سيولد من جديد ، لا يخشى الموت ، تعرض له مرات عديدة ، وفى كل موقف كان من المفروض ان يغرب تماما ، كل ما يعيشه وقت زائد ، يقول الرفاعى انهم يريدون ان يثبتوا للبلد وللعدو وللعالم أن مصر انجبت رجالا يعرفون كيف يقاتلون ويستشهدون ، وهو سيثبت للرفاعى انه من هؤلاء ، لن يتركه ، وهل نسى الرفاعى أحد رجاله يوما ، هل أهمل جريحا ؟ لن يتركه فوق أرض يجوس خلالها غريب ، لن يدع العدو يشق بطنه ليحوله الى لغم متفجر ، انها هذه المرة ، فى اللحظات الأخيرة التى تسبق اقترابهم من ضفة القناة يسرى مرح رهيف ، مصطفى يمشى على اطراف اصابعه ، كثيرا ما قالوا له ، تبدو وكأنك لا ترتدى حذاء ابدا ، كأنك بلا ظل ، ابو

الحسن فى مجموعة القيادة يتلفت حوله ، على شفتى عصام نفس الابتسامة الموحية برغبته فى الاقتراب من الآخرين منذ لحظات ضحك عندما قال له علاء ان توفيق يكمن صامتا لأنه لو لفظ كلمة واحدة سيرصد العدو مكاننا ، تبدو مياه القناة الزرقاء ، منذ شهور عبروا من نفس المنطقة الى الهدف ، بعد انتهاء العملية تقدم ضابطا شاب برتبة نقيب ، عانق الرفاعى ، قدم اليه شريط كاسيت صغير قال انه يهديه الى المجموعة ، على الشريط اصوات استغاثات قائد موقع العدو ، وقائد موقع « ٦ » يعتذر بأن القوات غير كافية للنجدة . .

تسلقوا الساتر الترابى ، مصطفى يحمل محبس الالغام ، انفجار ، انتشرت المجموعات ، لم تنطلق رصاصة منهم ، التعليمات صارمة ، لا اطلاق نار الا على هدف حى ومضمون ، توغلت مجموعات الاقتحام ، طلقات متتابعة ، رشاشات من طراز جليل نصف بوصة ، طلقة دبابة ، كأن جاروفا هائلا قلب الرمال ، سقطت دانة الدبابة فى قلب مجموعة الهجوم الثالثة ، صاح الرفاعى آمرا . . اسحب الشهداء . .

خطا طيف اعدت للغرس فى القوايش والعودة بها إلى الضفة الأخرى . . واصل تقدمه باتجاه الدشمة الرئيسية ، الاسلاك الشائكة اغزر ، أكشف مما تبدو عليه من الضفة الاخرى ، الرمال مغطاة بشعر

مجعد ، المزاغل المخفاة تطلق النيران بلا انقطاع ، من عمق الفراغ النهارى جاء صوت موتورات ، بدأت الدبابات ارتمى فوق الارض ، زحف فوق جدار الدشمة شبه المنحنى ، اصبح تحت المزغل الرئيسى الذى يحمى مدخل الدشمة ، مد يده الى أعلى ، أمسك فوهة المدفع ارتكز الى الأرض ، بسرعة نفذت الحرارة عبر قماش القفاز ، لامست الحرارة ملمس يده لكن الرصاصات اصبحت موجهة إلى الفراغ .

اقتحام . .

علاء ، ابو الحسن ، مصطفى ، زيتون ، اقتحام ، تدفق الى الممر ، البجاوى ، زحف ، رفع يده ، حل مكان الرفاعى ، أمسك الفوهة ، تجاوز الرفاعى الرجال ، الممر منحنى الى باطن الارض ، نفق ناعم زلق ، انتهى فجأة ، تتعرج الممرات ، بيوت الارانب ، المكان منبع المفاجأة ، اللحظات منفية ، الاحساس الخفى ينذر ، ينتبه ، التفت الرفاعى ، التقت عيناه بالعينين المتسعتين ، ثوانى المواجهة المصحوبة بالفعل ، يوشك الاصبع ان يلامس الزناد ، صرخة ، ثم طعنة تلت قفزة سريعة ، غاص سن الخنجر فى البطن ، مزع الجلد الى أعلى ، طش الدم ، اطلت المصارين الزرقاء اللون . .

الدبابات تهاجم . .

الاقتحام مستمر ، الممرات الملتوية ، أبواب تغلق فجأة ، لهب مارق صدى الرصاص ، يتوقف عمر لحظة ، يرصد الرفاعى لحظة التردد ، يزعق . .

ادخل عليهم . . انت جاى تتفرج :

فى اللاسلكى يصيح مصطفى . .

تم سحب الشهداء . عدا شهيد واحد . .

ابحث عنه . . حول . .

علاء يتصدى للدبابات .

علم . . حول . .

دخان ، بارود ، لحظة المواجهة تتكرر ، محاولة تصويب ، ضغطة الزناد اسرع من الخنجر ، يبدو الاستسلام فى العينين ارتخاء الملامح ، صرخات ، الفاظ مدغومة ، مدفع عمرو « يزعط » فى الممر الداخلى ، يلف الرفاعى الشعر الكثيف حول معصم اليد ، فى البداية خط احمر يلتف حول الرقبة ، يتسع ، يتفجر الدم ، فى مطبخ الموقع ثمرات بطاطس فى اناء الومنيوم ، سكين مغروسة فى ثمرة لم يتم تقشيرها ، طبق فوق الارض ، ملاحة من وعائين ، زجاجة مياه معدنية ، المطبخ خال ، يحزمه بالالغام ، بوتاجاز مشتعل ، ثلاجة مفتوحة ، تعمل بالكيروسين ،

يختبئون فى قلب الموقع ، غرفة الدفن انهيار ، طلقة ار بى جى ، مكتومة ، التدفق الى القلب عبر الطرقات الملتوية ، حرق الأوراق ، أبو الحسن يجمع كل ما تلمسه أصابعه ، أربع جثث فى الممر الرئيسى ، تبادل اطلاق نارى كثيف ، انهار الباب الرئيسى ، حزمة ضوء تنفذ الى الغرفة من فتحة مستديرة فى السقف ، الاردية الزيتونى تلتحم بالكاكى تستنفز كل العضلات ، يد الرفاعى المصابة ثقل من رصاص ، الحزاء يستقر فى البطن ، يلامس سن الخنجر عظام صلبة ، ثلاثة يتراجعون بعد أن جردتهم طلقات سريعة من مسدساتهم ، الرعب جعل الملامح متشابهة ، الخوف مادة صيغوا منها . .

« ما تخليش حد » . .

الضوء والدم ، تكتكات اللاسلكى ، غبار ، اصداء الغرفة الجانبية مستعصية على الاقتحام ، تم تحزيم الموقع كله بالالغام ، أمر الانسحاب ، الدبابات تتحرك من الخلف ، دمعت عينا الرفاعى عندما واجه الضوء ، تتقاطع قذائف الدبابات ، حتى الآن لم يظهر الطيران ، علاء يخرج من الموقع المجاور ، يعرج عرجا خفيفا لكنه قادر على السير ، من الضفة الغربية يجىء الصوت . . ارجع بالأولاد » ، الى القناة ، ركوب القوارب ، تجول عيناه ، يدرك مصطفى ما يبحث عنه ، يقول ان الشهداء تم سحبهم كلهم الى الناحية الاخرى . . انفجارات فى العمق . .

« مدفعيتنا اشتغلت » زرقة السماء مصهورة ، صرخة من مكان ما ، ستار المدفعية النارى ، فوق الرمال ارتمى ابو الفضل ينزف بغزارة ، تبلل جوربه بالدم ، ركع مصطفى بالقرب منه . . « استند على . . » . نظر اليه ابو الفضل بعينين مرهقتين نزف من نظراتهما الى حد الاعياء ، «ابعد . . سيبنى . انا ما عدش فيه فايدة . . » رفع مصطفى ذراع ابو الفضل ، صرخ « سيبنى . الحق نفسك انت . . ما تعملش بطل » . . ، صاح الرفاعى « ابو الفضل . » استسلم لمصطفى ، فوق الضفة الغربية طاف الرفاعى ، التمام المعتاد الذى لم يستطع أن يقوم به فوق الضفة الشرقية ، الأحياء ، الشهداء بنقص أربعة . قال مصطفى . . « سحبنا جميع الشهداء » هذا يعنى ان هناك اربعة مصائر على . ضفة الاخرى ، انه يكره الاضطراب ، قال الرفاعى وهو يتجه الى القناة ، « سأعود الى الرجال . . من سيجىء معى ؟ » عصام ، أبو الحسن ، مصطفى ، علاء ، قال الرفاعى « ابقى هنا ياعلاء » ، بدأ عبور القناة فى هذه المرة أكثر بطءا ، وأعمق صمتا ، القذائف تصل ما بين الضفتين ، فوق الضفة الغربية أصغى رجال المجموعة ، ورجال الموقع الى صوت معدنى نحيل ينفذ من خلال الانفجارات والشظايا ، كان الرفاعى يصيح مناديا على رجاله الأربعة مستخدما ميكروفونا يدويا صغيرا ، بعد ساعة عرف الرجال أن دبابة اسرائيلية طاردت الجرجاوى ويوسف وعباس والدمياطى ، اتجهوا الى

داخـل سيناء ، زاغـوا بين المـرتفعات الصغيـرة ، فى الـطريق فـوجئـوا بمنخفض ، لم يصدقوا عيونهم ، امامهم بطارية صواريخ هـوك كاملة ، بدت كماكيت ضخم غير حقيقى لانها مهجورة تماما ، لم يضيعوا لحظة ، ارتفعت السنـة اللهب الاصفر اللزج من الصـواريـخ ، فجـروا عـربـة الرادار ، ثم كمن مع الرجال بمحاذاة مدق رملى قريب حتى وصل اليهم نداء الرفاعى ،

غير أن إنسانا لم يستطع الاقتراب من الرفاعى فى هذا اليوم لما بدا عليه من صمت غريب ، علاء لم يتحدث اليه ، وعصام لم يقترب منه ، اما توفيق فحمل وجهـه صدى الصمت وظـل الحزن ، خـلا الرفـاعى الى نفسه ، بدا له اليوم رماديا مبللا بالدموع ، اتصلت القيادات للتهنئة ، تم نسف الموقع وتطهيره تماما ، لكنه لم يجب على التليفونات ، طافت بذهنه صور بعيدة ، قطرات الندى الفجرية فوق صخور جبال البحر الأحمر خواء هذه المنطقة ، وما تبعثه من احساس بالبعد ، الرغبة فى رؤ ية الاصدقاء عنـد نزول بلد غـريب ، مضى الى المستشفى ليرى جـراح الأحباب ، وليثبت ملامح رفاق السلاح فى الذهن المتعب ، ثمانية شهداء ، خلفـه الطبيب يمشى حذرا ، لم ينتـزع عنهم الا الأحذيـة ، ضمدت مـواضع الجراح بالشاش والقطن ، عمر متمدد فى هدوء كأنه يهم بابلاغه رسالة ما ، أول وآخر عملية ، المسيرى سليم تماما ، ملامح وجهه تحتفظ ببقايا الم

لحظى صاعق ، نفذت الشظية الى الرقبة ، اخرى الى داخل الرأس عبر جسده رعدة ، تصلبت قامتة ، أدى تحية عسكرية لاتفرضها مراسيم ولم تتحدث عنها تقاليد ، فى اليوم التالى طلب من السرساوى الضابط الذى يجيد الرسم ان يخط بحروف بارزة اسماء كل من استشهدوا على لوحة مستطيلة ، وان يرسم لهم لوحات ، عرف الحزن طريقه الى المجموعة ، خلت اماكن فى عنابر النوم ، ودخلت عبارات لم يلفظها أحد من قبل فى الحديث اليومى ، كان السرساوى وهو يخط أسماءهم يقول : « الذين سبقونا » قال الرفاعى ان رحيلهم يعلمنا كيف نحقد أكثر على العدو ، فى اليوم الثالث لاتمام العملية عصف به غضب ، ولم يذكر عبد المؤمن انه رآه هكذا من قبل ، بدا على أبو الفضل اعياء شديد ، نقص وزنه بشكل ملحوظ ، توقف الرفاعى أمام السرير الحديدى فى العنبر الكبير الشبيه بالجراج ملامسا خصره براحتى يديه ، لم يتبادل مع ابو الفضل حديثا منطوقا ، تلاقت عيونهما ، ولمدة سبع ساعات تالية ، لم يكف عن الحركة بين ادارات مختلفة ، تحدث الى ضباط برتبة لواء ، وناقش ضباطا برتبة عميد ، واحتد فى أحد المقار ، وشرح ما قام أبو الفضل به عدة مرات ، وانفعل أكثر من مرة حتى تدفق الدم عبر شرايين رقبته الى رأسه ، ولاحظ عبد المؤمن ان أصابع يديه تدور حول بعضها ، لم ينتظر المصاعد فى بعض الابنية وصعد السلالم قفزا ، ابدى ضيقا عندما تأخر احد الجنود فى طبع

خطاب كتب من أجل ابو الفضل ، وفى المساء لم ير أحد الارتياح الذى أسدل على ملامحه عندما جاءته مكالمة مختصرة انتظرها طوال الفترة الواقعة بين الرابعة والسابعة ، قال لعلاء وعصام وتوفيق ووسام « تعالوا الى مستشفى المعادى » فى الطابق الرابع لافتة تطلب عدم الازعاج حرصا على راحة المرضى ، على باب الغرفة رقم (١) علقت لافتة تقول ان الزيارة ممنوعة ، قالت الممرضة انه نام بعد وصوله ، استيقظ منذ خمس دقائق فى انتظار الطبيب المشرف على الحالة . . ، فى عينى ابو الفضل دهشة وخجل وتعبيرات تنتمى الى الطفولة المنسية ، هم بالقيام ، وهل هذا معقول والجبس يوثقه ، واشار الرفاعى باصبعه ملامسه فمه ، رفع علاء ابهامه مبتسما ، لم ينطق عصام توفيق ، بقى الصمت المعقم بدون خدش ، ثم مضوا الى عدة اماكن بالمستشفى ، الى مكتب الطبيب المشرف والى مكتب ضابط الأمن ، والى مكتب الامانات ، والى المشرفة على التغذية ، وعندما وجه الرفاعى سؤ الا عن امكانية احضار طعام من الخارج ، قيل له ان هذا غير مسموح به تماما ، قال علاء للمشرفة على التمريض ان هذه الحالة تلقى اهتماما من أعلى المستويات ، ابتسمت المشرفة ، نظرت اليهم وقالت ان هذا واضح ، صباح اليوم التالى رن جرس التليفون رنة واحدة مختصرة . .

كان ابو الفضل يصغى الى ضجة السيارات الخافتة فى الطريق المحاذى للنيل والقادمة عبر النافذة التى فتحت قليلا ، قالت الممرضة « العقيد الرفاعى يسأل عنك » . . بعد ربع ساعة رن الجرس ، قالت الممرضة « الجاويش مصطفى يسأل عنك » ، ثم ابلغته خلال الساعات التالية باسماء من اتصلوا به ، الرائد وسام ، المقدم توفيق الجرجاوى ، الرائد عصام ، المساعد ابو الحسن وفى مقر المجموعة قال الرفاعى انه سيضيف ست ساعات الى تصريح اجازة اعتبارا من اليوم لزيارة ابو الفضل ، وقال ان الذين يسافرون الى بلاد بعيدة يمكنهم ارسال خطابات الى ابو الفضل ، وان عبد المؤمن سيقوم يوميا بتوصيل الخطابات المكتوبة من زملاء ابو الفضل اليه . .

فى ذلك اليوم ذهب مصطفى الى أمه ، سألته عن أحواله ، دعت له أن ينجو من الأخطار وان لم تعرف ما يتعرض له من اخطار مضت إلى الدولاب القديم ، أحضرت له البيجامة ، عندما بدأ احتساء كوب الشاى الدافىء ، جلست فوق الارض ، سألته عن صحته ، ثم سألته عن الرفاعى ، حدثها من قبل ان تراه فى فرح فوزية شقيقة مصطفى ، قال لها انه قلب الدنيا من أجل ابو الفضل بعد ان جرح ، رفعت يديها ، دعت له طويلا ، استفسرت عن صحة أبو الفضل ، قامت فى الفجر ، خبزت فطيرا ، مضت الى الفرن القريب ، ثم إلى السوق ، اشترت جبنا وعلبة

عسل نحل ، قـال مصطفى ان الاطبـاء حددوا أنـواع الاكل ، ابـدت غضبا ، قالت ان الانسان اذا سمع كل ما يقوله الاطباء لن ينجو ولن يتمتع بالصحة ، قالت لمصطفى امض الى زميلك وقل له هذا من أمك بخيتة وليرمه فى البحر بعد ذلك ، فى الاجازة التالية ، اعطاها دفتر التوفير ، قال أنه لو حدث ما تسبب فى غيبته ، فان الرفاعى سيساعدها على صرف هذا المبلغ ، اتسعت عيناها ، ما هذا ؟ ارتبك ، قالت احتفظ شيء لنفسك ، هـذا فأل سيىء ، اذهب وانتبـه لنفسك ، سـأزور الحسين وادعـو لك وللرفاعى وللكل ، خذ دفترك ، بدت صارمة ، تذكر ملامحها التى اكتسبها بعد وفاة والده ، لم يستطع مجادلتها ، فى نفس الليلة جلس فوق السرير بالعنبر ، كتب رسالة الى الرفاعى ، طلب منه ان يجنب امه المتاعب التى قد تترتب على سعيها لصرف معاشه ، قال انه يعرف تماما بأن الرفاعى لن يسمح باى تقصير لكنه يوصيه ، وضـع دفتر البـريد وصـورة له داخـل مظروف أصغر ثم وضعه فوق الرف الثالث داخل الدولاب الصغير الخاص به بعد ان كتب عليه « إلى قائدى وصديقى وأخى العميد أركان حـرب ابراهيم الرفاعى قائد المجموعة ٣٩ قتال . . »

فى يوم الخميس التالى عاد الرفاعى الى بيته مثقلا بالتعب ، ثلاثة أيام لم ينم ، فوجئت نادية عندما خرج من الحمام ليرتدى حلته الرمادية ، قال ان النوم بالنسبة له مؤجل باستمرار ، انه مـاض الى فرح أحـد الرجـال ،

خفض عبد المؤمن رأسه حتى يمكنه ان يرى ملامح الطريق فى عزبة النخل ، البيت عند اطراف العزبة ، من الترعة القريبة علت أصوات الليل ، الوقت ربيعى والحياة رئة هائلة تتنفس بنشاط ، البيت مزدان بمصابيح كهربائية ، عبر السور الخارجى وبجواره علاء وتوفيق وعصام وعبد المؤمن . . جاء سعيد ، بدا غير مصدق ، عانق الرفاعى ، وقف الرجال فى الحجرة الفسيحة التى أضيف اليها مقاعد عديدة ، خرج سعيد وعاد بصحبة الجرجاوى كان يرتدى حلة سوداء ، وقميصا متين الياقة ، تفوح منه رائحة عطر ، صاح علاء ، . . « انت متنكر » قال الرفاعى « مبروك » ، تعانقا .

فى تلك الأيام شعر الرفاعى بدبيب النمو فى عمر المجموعة ، منذ فترة أصبحت تحمل اسما ، قال الضابط كبير الرتبة ، حان الوقت لتحمل المجموعة اسما ، قال الرفاعى . . لقد قمنا حتى الآن بتسع وثلاثين عملية ضد العدو حتى الآن ، اقترح ان نسميها المجموعة « ٣٩ قتال » كان يشعر انه يوزع نفسه على المجموعة ، فى كل موقع إليه بسيناء ترك قطعة من جسده ، وفى قلب كل رجل صحبه أودع من عمره أياما ، أحزان المجموعة لا يعانى منها فرد ، تتوزع على الكل ،

بعد العودة من عملية الكارنتينة لم يفارق الرفاعى مكتبة ليلة بأكملها ، ساد هدوء ثقيل ، بدا ضوء المصابيح المعلقة أكثر بعدا من ضوء

النجوم ، فى تلك الليلة تصدر علاء المائدة فى المطعم ، ترك مكان الرفاعى فى الصدارة خاليا ، على المنضدة صفت ادوات المائدة ، أنقبض قلب عبد المؤمن ، هذه اول مرة يخلو فيها مكان الرفاعى بعد اعتذاره عن الحضور ، تم العشاء فى صمت ، لم يسمع الا احتكاك الملاعق بالاطباق ، كما ان احدا لم يطلب طعاما اضافيا .

أما مكان الرائد عصام الدالى فلم يستطع احد ان ينظر اليه ، ترك خاليا ، لم توضع مقاعد ، أو أدوات مائدة ، بدا شاغرا ، موحشا

فى هذه الليلة اصغى الرفاعى الى وسام ، جلس ممسكا بقلم رصاص خطط به أشكالا مجوفة فوق ورقة بيضاء ، حشاها بظلال خفيفة ، ثم مر عليها من جديد فازدادت قتامة ، ثم حفر خطوطاً غليظة تخللتها دوائر صغيرة ، استمر وسام يحكى بصوت هادىء ، قال الرفاعى يوما لوسام انه يخشى زمنا يجىء فيلهيه عن التفكير فى احد الذين صحبوه ثم رحلوا ، قال إن الناس يجدون فى الزمان عزاء ودواء لتخفيف الأحزان ، وهذا حقيقى فأقوى الأشياء لا يصمد للزمن ، لكنه حزين لان يوما سيجىء فتبهت الذكرى .

قال وسام إنه بعد عودة الرفاعى الى رصيف الكارنتينة الذى سبق تلغيمه ، بدأ العدو فى قصف القوارب واطلاق المشاعل المضيئة بدون فواصل زمنية ، عندما تأكد عصام من عودة الرفاعى إلى القارب أشار

بالتحرك ، ضرب وسام الماء بالمجداف ، فى مواجهته عصام ، بعد قليل سيتناول منه المجداف ، كان وجهه يبدو واضحا كلما انفجرت قذيفة مضيئة فوق الكارنتينة التى بدأت تبتعد عنها ، عندما برق الضوء الاصفر الفاقع الذى يصهر سواد الليل ، اتسعت عينا وسام ، لم يكن الجسد قد مال عليه بعد ، اليدان ماتزالان ممسكتان بحافتى القارب ، القدمان فى وضعهما المثنى ، ينتهى الجسد فجأة عند الرقبة ، الدوائر الحمراء ، العروق المشطوفة ، والدم المتدفق يصل إلى جيبى السترة ، على مهل مال الجسد حتى استقر فوق صدر وسام ، تسربت الى جسده حرارة الدم الذى بدأ يتدفق مصحوبا بصوت ، شيئا فشيئا ، راح يغرق فى دماء صديقه ، وكلما برق ضوء المشاعل رأى الرقبة الفارغة ، الفاغرة والدماء .

هل تعتقد ان المنطقة مليئة بالقرش ؟

أومأ وسام مجيبا ، بعد لحظة قال الرفاعى . .

أصبح بيننا وبين العدو دم غزير . لا اتصور ان الزمن سيمحوه . .

فى تلك الليلة لم ينم وسام ، عندما بدأ يغفو استعاد الموقف منذ بدايته ، الدم الطرى الحار ، ميل الجسد البطىء وثقله المضاعف عندما استقر فوق صدره ، فارق السرير ، شعر بخوف لم يفاجئه فى عرض البحر والوحدة والظلام ، كيف اجتاز هذا ، قبل العملية قال علاء ان افضل طريق الى الموت رصاصات مباشرة فى المخ ، قال توفيق إن اقصر الطرق

موته المفرقعات ، ان تنفجر بين اليدين فجأة ، قال عصام ان قنبلة مباشرة من زنه الألف رطل نعمة من عند الله ، قال الرفاعى . يا جماعة اذا طخ الانسان بعيار أصبح فعلا ماضيا ، هل سيفكر فى الطريقة التى مات بها ؟ الاعمار بيد الله ، تساءل توفيق بصوته الضخم ، هل يتألم الانسان عند الموت ، قال وسام ، الم تسمع المثل الشعبى « سارقاه السكينة » ؟ قال توفيق ، افضل الموت مستيقظا ، لم يتنبأ أحد بالطريقة التى رحل بها عصام ، قدر خفى ارشد الشظية الحادة المسنونة ، الساخنة الى موضع الرقبة ، لم يسمع وسام آهة الم ، ولم ير الرأس لحظة اندفاعها الى البحر ، سلبهم العدو انقى ما فيهم ، كان لا يتحدث الا مجيبا على سؤال ، أو شارحا لفكرة ، يبدو دائما مطرقا ، وفى الاشتباك لا يطلق صرخة ، ولا يبدو عليه الانهاك حتى لو استمر الالتحام ساعات ، تبدو رغبة فى اقتداء كل من معه ، يعرض نفسه لموقع الخطر ، لم ينافسه فى ذلك الا الرفاعى نفسه ، استشهاد عصام مفاجىء ، اصغى الرفاعى الى الليل بعد انصراف وسام ، رأى اطراقة عصام الخجول ، واهتمامه الشديد باسداء خدمة الى الآخرين ، ثم حرارة حديثة المفاجئة وكأنه يود ان يودع أثرا منه لدى كل مستمع له ، استمر الليل ينزف سوادا مستمرا ، بدا الفجر بعيدا ، فى الهدوء قرض الرفاعى شفتيه ، ستتم عملية كبرى ، عملية عصام الدالى ، سيحدث لهم مذبحة ستروى فى كتبهم . . فى هذه اللحظة

حسم العقيد علاء تردده ، خطا تجاه مقر الرفاعى الذى لم ينطفىء ضوؤه بعد ، طرق الباب ، عندما فتحه وقف متجمدا ، الرفاعى جالس إلى مكتبة مرتديا الافرول ، أصابعه متشابكة قلم رصاص بجوار ورقة بيضاء لم ير ما بها ، كان ملفوفا بالوحدة ، غارقا فى الغربة ، تلك الدموع ، هل كان يذرف دموع المقاتل النادرة على كل شهيد ، كم بذل من جهد حتى يسحها على مهل بينه وبين نفسه . .

غير أن علاء لم يستطع ان يؤجل احزانه فى ذلك اليوم الذى جاء بعد اكثر من ثلاث سنوات ، بعد ان مضى ثلاثة عشر يوما على السادس من أكتوبر ، بالضبط يوم الجمعة التاسع عشر من أكتوبر . . جاء إليهم الرفاعى بعد لقاء تم بينه وبين رئيس الاركان ، اخرج من جيب سترته ورقة كراسة ، الخطوط فيها رسمت بسرعة ، ازيز حاد شرخ السماء الزجاجية فوقهم ، فى تلك اللحظة ايقن وسام ان شيئا غير عادى جرى ، لكنه لم يضع يده عليه ، قال إن المهمة تغيرت ، لن يتجهوا لنسف معبر العدو عند الدفرسوار انما سينتشرون جنوبى الاسماعيلية ، سيتصدون لدبابات العدو ، هبت رائحة خريفية ، تختلط برائحة مطاط محروق ، وزيت مسكوب ، ورائحة لحم آدمى مشوى ، وفى السماء تناثرت كتل صغيرة من الدخان تخلفت عن انفجار قذائف المدفعية المضادة للطائرات . .

قال العقيد علاء لنفسه . .

كيف اقتنع الرفاعى بذلك . .

قال وسام لنفسه . .

ماذا جرى للرجل . . ماذا يقول لنا ؟

تساءل مصطفى ، لماذا يبدو وكأنه يردد ما سمعه فقط ؟ تذكر اللحظات التى يشرح فيها خططه ، فتلين ملامحه حينا ، وتشتد حينا آخر . . إن الثقة به غير محدودة ، الثقة بالقائد لا تحتاج الا لتجربة واحدة ، ثم تتوطد وتعيش الى الابد ، ربما هذه الثقة هى ما جعلت كلا منهم يشعر إن الحال ليس هو الحال ، وان ثمة تغيرا اطرأ .

فى الثانية عشرة والربع جاء صوت مصطفى مستنجدا . .

« انا راجع ومعى رجلنا . . »

علاء يرد ، يسأل بغمض العينين عن رؤية لهب مخيف سيخترق عينيه :

« راجع على قدمين »

انفجارات ، طائرات تروى الارض بالرصاص ، قذائف تزرع الهواء بالشظايا ، يتفجر قرص الشمس ، الهواء من لهب ، كل ما فى الكون يحارب ، الصحراء كفن أبدى لا يبلى ، صوت مصطفى متقطع كموجات اللاسلكى اللا مرئية . .

« لأ . . راجع على ظهر . . »

نافورة صوت هائل متألم ، موجع ، يتفجر صدر توفيق ، ناظرا الى السماء فى وضع عمودى ، رافعا قبضته ، لا . . لا . . صراخ متوحل ، عمقه بالسنين ، تغوص قدماه فى الرمال ، يضرب صدره . يقرض وسام شفته ، لحظة أن رأى عصاها بلا رأس ، الكلاب يريدون أن ينهشوه راقدا بعد أن عجزوا عن نهشه مقاتلا ،

يزعق علاء من فصر الحنجرة ، يستنفر حياته كلها ، كل منهم عليه ان يقاتل ليسترد جزءا من عمره يوشك ان يسلب ، وحنينا ، وأملا فى الاحسن . .

« يا رجال . . تعالوا نرجع بالرفاعى . تعالوا نرجع بالرفاعى »

النشور

(١)

. . الاسكندرية مثوى الذكريات وتابوت صان الايام الجميلة والآن فيها منبع الدموع المؤجلة التى لا تتوقف ولا تكف وعندما وصلت اليه وانتظرت عربة تاكسى امام تفتق جرح كاو الهب دقات قلبها لن يظهر فجأة ولن يقبض يدها عندما تفيض اشواقه فتدرك من صمته ما لم تدركه من نطقه ولأن السند هوى وكل شىء ستقوم هى به ولان ظلها لن يختلط بظله فوق الرصيف المحاذى للبحر ، ولأنه لن يشير الى الأفق الزجاجى ويقول ضاحكا آهـ لو يمشى الانسان فوق الماء ولأنها لن تصغى الى امنياته ورغباته الغامضة ، وعندما جاءت معه الى الاسكندرية اول مرة فى الزمن الأول

جاءت وجلة تحبه بعد ان نأت عن الأقارب الذين عارضوا ، والأشقاء الذين رفضوا ، وفيما يلى ذلك من سنوات جاءت معه كثيرا الى الاسكندرية المبتلة بقطرات ايامها الأولى والتى تستعيدها الآن فترويها بدموع سخية تسح ولا تشح ابد لأنها لن تراه ولن تسمع صوته فهو لم يعد يمشى فوق الأرض ولأنها لن ترصد الارهاق الذى لا يبوح به ومن كلماته القليلة تجهد نفسها لاقتفاء آثار المعانى ولأنه لم يكن يشأ أزعاج محبيه بآلامه ولأنه كان يفيض بالفرح على من حوله ويضمن بالأوجاع والاحزان ، وعندما جاءها الخبر يوم الجمعة حط على كتفيها ثقل بغيض وتوقف الزمن فى صمت باتر وادركت انها الخاسرة الأولى فى الدنيا ، وبدا البيت عمرا كاملا وكل ما فيه مضمخ بروائحه فكل قطعة اختارها معها وهنا جلس وهنا ضحك وهنا حمل سامحا فوق كتفه عندما بلغ من العمر سنة وأمام حجرتها توقف وسأل ، هل نام سامح ؟ هل نامت ليلى ؟ فى الصالة انتظرته وخفق قلبها عند سماعها لخطوتيه الأخيرتين قبل ولوج المفتاح فى الباب ، وعرفت انها ستعيش انتظارا من نوع آخر لانه طويل المدى ومضن ومرهق للعمر ، وفى كل مرة خرج فيها الى القتال كانت تئق من عودته وتجلس فى الشرفة مع الليل وبعيدا عنها وفوق نقطة معينة من الارض التى يحتلها العدو يتحرك ويضرب ، وكان يقول ان الذهاب الى العدو ومحاربته افضل من البقاء فى انتظاره ، وقبل مجىء الفجر تصغى إلى الهليو كبتر التى تتجه الى المطار

القريب وفى احدى الليالى قال انه يجب ان يراها بعد عودته ونفذت كلماته حتى اطرافها وعندما جلس مرتديا ثيابه المثقلة بآثار القتال ادركت من اطراقته ونطق كلماته مدى ما اصابه من نجاح ، ولم تكن تضيع ثانية ، انما تتحرك فى هدوء لتعد قربة الماء الساخن وعشاء خفيفا ، وكان يضيق اذا قالت له انها لم تتناول طعامها وتساعده فى خلع الافرول ، وعندما بدأت الحرب يوم السبت السادس من اكتوبر ازدحمت السماء بالهليو كبترات ولم تدر فى أى طائرة هو ؟ ولم تدر ميعاد عودته وبعد سماع الخبر لم تواجه سامح وليلى انما دخلت الى عرفتهما وهوت فوق المقعد المجاور للسرير ومن كل شىء نفذت اليها رائحته ورأت بيجامته الشتوية خاوية وزجاجة كولونيا مصرية الصنع لم تفرغ بعد وفوق المنضدة الصغيرة غطاء الرأس العسكرى الذى احتوى رائحة شعره وتحته كتاب باللغة الانجليزية ، وبين صفحاته تطل ورقة بيضاء مستطيلة اما مكانه فوقفوق السرير فمستو وتذكرته عندما كانت تفتح عينيها فتجده جالسا ومستيقظا قبلها ، وفى تلك اللحظة استقر داخلها ثقل مرير وأدركت انها لن تجرؤ على أن تسند رأسها الى نفس الوسادة لأن الحجرة اصبحت كهفا من الوحدة وفى الليالى الاولى جاء كثيرون لكن فى لحظة معينة من الليل أغار عليها خواء ابدى وسقطت فى ثلاجة من الاحزان وعندما واجهت القادمين لم تحن رأسها وحدقت فى العيون بثبات ولم يفارقها يقين بأنه يراها ويطوف بالبيت ملتحفا بكل

الألوان التى لا ترى وتنبعث منه روائح لا يميزها انف وأيقنت انهن مبتل بالسكينة لانه يراها فى النهاية كما عرفها فى البداية ، ولانها استجابت له فى غيابه فلم تبك كما طلبت منها ، وأدركت انه يطوف بالبيت ، ليطمئن على النيام وليستريح ، وطوال العمر القصير تحرك فيه هادئا بلا ضجيج ولم يتكلم كثيرا ، وكان ظله خفيفا ، ولم يعاند ، ولم يضرب سامح ولم ينهر ليلى ، ولم تكن له طلبات ، واذا سألته عما يود ان يأكل يقول لها « ما ستأكلينه انت » واذا احتدم النقاش يقول لها « اخفضى صوتك سيسمعك الجيران » ، وعندما تفتح الباب لا تدل ملامحه على الجهة القادم منها ولا الى أى ناحية سيمضى ؟ وبعد رجوعه من ليالى القتال يدخل حجرة ليلى وسامح على اطراف اصابعه ويتأملها ثم يميل ليقبلهما ويأبى ازعاجهما وهو الآن يحوم حولهما ولا تراه ليلى ولا يراه سامح ، وتود ان يرضى عنها فى غربته وسبل الاتصال بينهما مقطوعة ، وفى اليوم الأول لم تبك انما قالت لنفسها ان زمان البكاء بدأ ، وان الأيام التى ستبكيه فيها بلا حد ، وفى كل عام ، وفى يوم التاسع عشر من اكتوبر ستبدأ ذرف دموع تفيض على امتداد السنة كلها ، وعندما ناءت بحمل الساعات والليالى والزمن الذى ولى جاءت الى الاسكندرية كما جاءوا أول مرة ، وبعد زواجهما قالت امه « خلى بالك منها » وصحبهما اشقاؤها ، سمير وسامح وسامى حتى المحطة ، وفى الفناء الكبير اشار الى الديزل الذى بدأ

التحرك ، وقال انهم تأخروا نصف دقيقة ، وضحك ، ورددت الطرف بينهم حائرة ، أهى مسئولة عن التأخير ؟ وهل استغرقت وقتا أكثر من اللازم فى اعداد حقائبها ؟ وضغط يدها ، وخرجوا الى الميدان ، وعاد سامى ليقول انه عثر على تاكسى سيتحرك بعد قليل وعندما ادار السائق الموتور لوحوا بأيديهم وفيما بعد حكى لها عن اشقائه ، سمير وسامى والمرحوم سامح ، وحكى لها عن انتقال الاسرة من بلد الى آخر ، واستيقاظهم مبكرين ليلحقوا المدارس البعيدة ، ومشيهم فوق الطرق الزراعية ، وحدثها عن الانتقال المفاجىء الى بلد آخر وعند وصولهم الى المدرسة الجديدة يجدون أنفسهم اما قد سبقوا المنهج او ان المنهج سبقهم كما ان الزملاء والاصدقاء يتغيرون ، وفى طنطا توقف التاكسى ودخلا الى استراحة صغيرة وجلسا الى منضدة مستديرة وتعانقت نظراتهما ، ومنذ هذه اللحظات مشت فى وطنه وظللتها غماماته وصارت معه ، ولو عرفت أنها ستحاول بعد سبع عشرة سنة استقصاء الأثر لصانت كل ما مر بهما ، ولاحتفظت بكل ورقة فوقها حرف ولتعلقت بخطوات الزمن حتى تثقله فلا يمضى ، وعندما مرت أمام الفندق الذى قضيا فيه باكورة العمر الجميل توقفت ولم تجرؤ على عبور الطريق اليه وحول البناء رأت الحديقة كالسلوى ، والمصابيح الملونة معلقة إلى أعمدة خشبية ، وتذكرت جلوسهما تحتها ، وابتسامهما ، وهمسهما ، وانحناء الجرسون لهما ، وعناقهما لزرقة

البحر من الشرفة الخشبية الفسيحة ، واستنشاقها الهواء القادم من شطآن غير مرئية ، وعندما حدقت طويلا فى البحر قال مرحا « أقدم لك صديقى البحر » وعلى الشاطىء قال لها إنه سيستعجل النجار بعد عودتها لينهى الأثاث ، وعند نهاية الرصيف المبلط بقطع صغيرة من الحجارة توقفا وسألها ، إلى أين تودين الذهاب ؟ ، ولو حاولت احصاء المرات التى قطعا فيها هذا الطريق لكل ذهنها ، وفوقه مشيا عندما كانت ليلى جنينا تطرق ابواب الدنيا من خلال احشائها وكان الحنو مغدقا منه ، واللهفة لا تفارق صوته ، ومنه تسرب اليها رضى احلى من الشعور بالأمن ، وعندما جاء فى الاجازة انحنى فوق المهد ، ورفعها بين يديه ورأت وجهه تحت ظلال خجل غريب مهموس ، والآن تواجهها المدينة بالصمت ، والبحر فى حركته الأبدية ، والناس يروحون ويجيئون ورجل يفتح باب سيارة لامرأة ، وامرأة تتأبط رجلا ، وتجثم عليها وحدة بغيظة فى قلب الزحام فتلوذ بأحد الايام البعيدة ، وتذكر اندفاعاته المفاجئة وفى البيت يتأمل الاثاث حيث لكل قطعة حكاية ، وكثيرا ما سألها ، « هل تذكرين متى اشترينا هذه الكنبة ؟ » ويبدو مرحا ، وعندئذ ترصد ملامح طفل تحبها ، وفى بداية كل شهر يخرج مظروفا أصفر اللون وتقول ضاحكة ، كم ستأخذ كمصروف ؟ فقال انه لا يحتاج الى شىء وعندما سيحتاج سيقول لها ، وعندما عاد يحمل بعض الثياب قالت ، الم تناقش البائع فى الاسعار ، قال بدهشة ، لم أفكر ابدا فى

مناقشته . . الاسعار مكتوبة فى الفترينة ، ثم قال انه لم يعتد المناقشة ، وفى لحظات اخرى دخل المطبخ وفتح الدولاب وتأمل العلب والصناديق الصغيرة وسأل ، ما هذا ؟ عندئذ تقف ويديها معقودتين أمام صدرها وتجيب « صابون » ويسأل مشيرا الى بعض الاكياس ، وهذا ؟ قالت « زبيب من بقايا رمضان » ، وتتقدم خطوة لتقول « أنا سأريحك . هذا سمن . . وهذا زيت » ضحك وقال « انا لا أطالب بالجرد » ، فقالت بدلال « اخرج اذن لو سمحت من المطبخ حتى اعد لك الغذاء » ، وهنا انصرف صامتا كأنه لم يدخل ، وكأنه لم يسأل ، وكأن هذه الأيام لم تمر ، وكأن سكينا هائلا بتر ففصل وابعد ، وفى الزمن النائى تردد صوته فى التليفون واضحا واثقا « زواجى منك معركة ولا يمكن ان اخسرها » قالت بصوت خافت محاذرة الا يسمعها احد « . . هل تعتبرنى عدوا ؟ » وعندما خرج يوم السبت السادس من اكتوبر كتب اليها رسالة موجزة « . . عندما يصلك خطابى هذا اكون ماضيا لقتال العدو ، قولى لمن تلتقين به ان فى مصر رجالا قادرين على هزيمة العدو . . » وها هو كل شىء يفلت ويولى وعندما جاءا معا الى هذا المطعم الذى لا تجرؤ على دخوله الآن كان المطر يهطل بغزارة وعبرا المسافة الفاصلة بين السيارة والباب قفزا ، وعندما دخلا نظرا الى المناضد الخالية ، وأويا الى منضدة مستديرة وجلسا وقال كل منهما انطباعه للآخر وكان يتدلى من السقف اوراق ملونة ومصابيح كثيرة وفى

الركن شجرة عيد الميلاد خضراء وقال لها ، كل سنة وانت طيبة ، وولى ذلك العام ، واعوام كثيرة يعده ، وستجىء سنين اكثر بدونه ، وستخلو كل الايام من مشاريعهما معا ، وخطاباته ومرات صمته التى اعتادتها ولن تعد له مفاجأة يوم عيد ميلاده ، احتفال بسيط فى بيتهما لانه لم يعد هناك اعياد للميلاد ولا مكان للبهجة ، انما ستحاصرها ايام البكاء الطويلة بـاحزان وآلام ووحدة ، هى الخاسرة الاولى ، وكثير ما يأخذها الفكر فلا تصدق انه لن يعود ، الم يواجه بلا حد ، وعاد سالما ، وكثيرا ماهفا قبلها واستولت عليها حالة انتظار لسمـاع خطواتـه الاخيرة قبـل التوقف امـام البيت ، وعندما فتحت عينيها فى ذلك الصباح تقمصتها لحظات ولت ، عندمـا كانت تفتح عينيها فتجده بجوارها ، وتدرك ان اليوم اجازة ، وانه سيبقى معهم ، وانه سيخرج بسامح ، وانـه سيداعب ليـلى ، عندئـذ تغمرهـا راحة ، وتنظر الى وجهة الهادىء احلو الآمن التقاطيع والوديع الملامح ، وتنفسه البطىء فتقول بصوت خافت ، « يا حبيبى » ، غير ان لحظة الوعى ادركتهـا كانقضـاض صـاعق ، فـادركت انها وحيـدة ، وانـه لا يتمـدد بجوارها ، وانه ليس فى البيت ، ولا فى مصر ، ولا فى العالم ، وان الحجرة غير حجرتهما فمنذ ايام افسحت مكانـا للكنبة فى غـرفة الأولاد واصبـح دخولها الى غـرفتها صعبـا ونبشا لشجـون الايام الحلوة ، تنـام مع ليـلى وسامح ، فى ذلك الصباح بكت وجـرى الدمـع سخيا وعنـدما خشيت

استيقاظ ليلى وسامح ورؤيتها هكذا خرجت على مهل الى الصالون وفيه استسلمت اسيرة للأحزان ونظرت الى صورته ، وهمست باعتذار لانها لم تستطع التصدى للبكاء ، لكنها لم تبك ولم تظهر ضعفا امام سامح وليلى ، وفى الاسكندرية طافت تحاول اقتفاء الاثر ، وكانت ملامحه فى الطرقات ، وعند النواصى ، وفى المقاهى التى جلسوا اليها يوما ، وايقنت انه يرافقها ومن كل مكان يرمقها وفى الليل تتعلق بالسماء ولتلملم ملامحه من اعماق النجوم ، وعندما فتحت الباب رأتـه يمسك بيـد ابو الفضـل الذى بـدا خجلا ، لكنه ابدى ترحيبا به ، وقام وتناول طبق المكرونة الكبير وعندئذ وقف ابو الفضل فضحك طالبا منه الجلوس وقال له « انت ضيف » ثم ازاح الشوك والسكاكين جانبا ونظر اليها قائـلا « نحن مقاتـلان ونفضل البساطة » وفى رمضان كان يطلب منها ان تحجز نصيب ابو الفضـل من الكنافة ، وفى العيد يعد لـه الكعك ، وكـان يقول انـه من الواجب ان نخفف الوحدة عن الانسان الذى ابتلى بالوحدة فلا ام ولا اب ولا اسرة له الا المجموعة وها هى تمضى الآن وحيدة ولا يظللها بجناحيه ولا يخفف عنها بهمسة وتمر من بعيد بحديقة المنتزة ولا تعبر الباب ولا تتخطى السور وعندما جاء مصطفى قال بصوت باك ان الاكل الذى كانت تعده له بعد اصابته بالقرحة كان يقتسمه معه ، وفى كل صباح يجىء صوت مصطفى عبر التليفون متسائلا « الا تحتاجون الى شىء ؟» وجاء عبد المؤمن يقود

السيارة الميكروباس البيضاء وامسك بيد سامح عند نزول السلم وفى الظهيرة عاد به وسأل ، الا تحتاجون الى شىء ؟ وجاء وسام وجاء علاء وجاء السرساوى يحمل صورة زيتية للحبيب الغالى ، وضعتها بين صور عصام الدالى وعمر وسعيد وبقية شهداء المجموعة والذين علق صورهم بنفسه فى الصالون ، أما ابو الفضل فلم تره ، وقالوا لها ان خدمته انتهت ، وانه لم يتصل باحد منهم ، ولم يره أحد ، وانه رحل الى اماكن لا يعرفها احد ، والتحق كل فرد من المجموعة بوحدة ، وفى حديث لمصطفى قال ان الكثيرين جاءوا الى مقر الحبيب ليروا اين عاش ؟ واين فكر ؟ واين وضع خطط الهجوم ؟ وقال مصطفى انهم ضباط وجنود لم يرهم ابد ولم يسمع عنهم وبعضهم لم ير الرفاعى ولم يلتق به ، وجاءت أم مصطفى وقالت انها لم تره الا ليلة فرح ابنتها ، لكنها احبته كمصطفى ، وتساءلت . . الا تحتاجين الى شىء ؟ قولى ولا تخجلى ومع مضى الايام تتباعد المسافات ، وتصبح الوحدة عمرا وتطول لحظات اصمت ، وفى الليل تتأكد من اغلاق النوافذ ، والترباس النحاسى المتين الذى اضافته الى الباب وعندما يدق الجرس تنظر من العين السحرية ولا تفتح الا إذا استوثقت من القادم ؟ وفى جوف الليل تصغى الى برودة البيت ، وترحل عبر سنوات العمر ، تلملم الذكرى من كل عام ، وتلجأ الى الدفء فى الاحاديث التى لم يدهمها النسيان ، وتصغى الى خطوات العائدين بعد منتصف الليل ، والى شظايا

ضحكات بعيدة مجهولة المصدر ، والى عبور عجلات المترو لفواصل ما بين القضبـان ، واذا عجـزت عن استعـادةملمـح أو عبـارة قيلت يـومـا ، تبكى . . .

« ٢ »

» . . ما بين اليقظة والنوم تتهاوى الموجودات ، تلين اليوابس وتتدافع سيارات فى صخب غير محسوس ، ويتعلق جندى بعربة نقل ، وترتفع معاول ، وتلمع الشمس فوق حديد ملقى فى العراء ، ويبدو الرفاعى ماشيا ، ويبدو مبتسما ، ثم يرى واقفا ، وجالسا داخل هيلو كبتر ، وتطير شظية فى حجم صومعة قمح ، ويظهر جنود من تحت الأرض يمد كل منهم يده حاملا رسالة ، والرفاعى يجمع الرسائل وفى المقر يلصق الطوابع ويقف جندى أمام الميكروفون يتلو شعرا ، وتعبث الرياح فى شوارع خالية ، اين الرفاعى ؟

يهوى ثقل داخل الصدر ، تتعثر دقات القلب ، بدايات غثيان ، لحظات ما قبل القىء ، الجسم يفرغ من الروح ، يقوم متسارع الأنفاس ، والوخز يفرش صدره ، يجلس فى الفراش ، الآن ، فى هذه اللحظة ، التالية ، لن تمضى لحظات الا وسيقع ما واجهه طويلا ، ما نجا منه ، ما أفلت منه ، الدوار خفيف هازىء يقف فى وسط الغرفة ، أى مواجهة هذه ؟ أى خلل طرأ على القلب ؟ أى قوة تباغته ؟ العالم كله سيولى ، سيموت . الآن ، الآن ، الآن ، الدقيقة التالية ، الخمس دقائق

التالية الدقائق الثلاث التى انقضت فعلا ، ينفرد به فى مكان مغلق ، يدفع مصراعى الشرفة ، المدينة هاجعة والشوارع خالية تفسح الطريق امام الموت القادم ، سألت زوجته بخوف .

مالك .. مالك يا علاء ؟

سيودع هذا كله ، سيغادر البيت ، والطرقات ، والعالم ، يشحب ، يجف لعابه ، تتسارع دقات قلبه ، يود الافلات من اسار الجسد ، من تصور ان الموت سينصب له هذا الكمين ؟ هذا الوخز البطىء الذى تحدثه ايد خفية غير منظورة ، الوخز الذى يسبق التوقف النهائى ، الوخز الذى يصحب تباطؤ الدقات ، القلب ضنين بما يدفعه من دماء الى سائر أنحاء الجسم ، تضيق به الشرفة ، يستند الى المصراع الخشبى ، يدخل ، الفزع يكسو وجه امرأته ، اختصر الرفاعى وعصام وعمر وعبد الكريم الطريق ، تعود بكوب ماء ، يرفعه الى شفتيه ، اشهد أن لا أله الا الله ، تصرخ زوجته ، علاء ، للماء مذاق غامض ، اهكذا ، لم يبد له الموت اثناء القتال والدوريات وعبور الالغام والنزول الى قلب المواقع المعادية ، ثم يجيئه فجأة بين جدران مشيدة ، جاء سالكا ممرات وعرة الى روحه ، يبدأ هذا الانهيار البطىء الذى لا صوت له ، تتساءل بفزع ... ماذا أفعل ؟ تمسك كوب الماء الفارغ ، لن يوقف احد هذا الزحف البطىء الذى اصبح الآن مصحوبا بهدير خافت وحلقات غير مرئية تدور داخل الرأس ، يحكم

الحصار حول روحه ولا يجهز عليه فى ضربة مختصرة واحدة ، والليل يثقل ، والنهار قد يجىء ، ولا يجىء ، ولن يذهب الى السرير ، لو أغمض عينيه فلن يفتحهما قط ، وفى السويس قال جندى مطاقىء يقف بجوار مخبأ المحافظة ، « جاءت الشظية فى حجم رأس الدبوس ، آه يا كبدى ، لم يحط منطق » وفى طريق المعادى قال لنفسه « لو جرحت ، سأرقد فى هذه المستشفى ، أو أحد المستشفيات العسكرية » ، فى حديقة المستشفى رأى مصابا يرقد فوق سرير متحرك ، يتدلى من تحت الغطاء خرطوم نحيل من البلاستيك يصب فى زجاجة مستديرة امتلأ نصفها بالبول ، قال لنفسه « اكره ان تعذبنى يارب » .

تقول امرأة . .

يجب أن نستدعى طبيبا . .

ينظر إليها صامتا ، موجوعا ، محاصرا ، ماذا يشكو ؟ هل استقرت شظية فى جسده ؟ هل ينزف دما ؟ هل غارت فى عروقه رصاصة ؟ نزيفه الحالى لا تراه عيون ، ولا ترصده أجهزة ، نزيف الحزن مستمر ، داخلى ، لا يبين ، إنه الآن فى هدنة مؤقتة مع هجوم الموت المباغت الذى لم يجهز عليه ، فى صغره ، قال والده ان ملاك الموت كان يجىء الى أمة محمد قبل ارساله إليها مجسدا ، وعندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام رجا الله ان يرحم امته من هذا الهول ، فبدأ عزرائيل يجىء متخفيا لا يظهر الا لمن

سيقبض روحه ، إنه لم يظهر له حتى الآن ، لكنه يحوم ، ماذا سيقول للطبيب وهو الطبيب السابق ، لو يطلع النهار ، لو يرى الحركة ، ويستنشق الروائح ، يدرك ان حياته انقسمت منذ الليلة الى قسمين ، الاول عاشه وولى ، كان مفعما بالحركة والقتال والرفاعى والزملاء الذين مضى كل منهم الآن الى مكان غير المكان ، والثانى بدأ ، المجهول ، انه يمسك بلحظة تولد فيها التجعيدة وتبقى لا تفارق الوجه ، عندما اتصل به احد الصحفيين فى الظهيرة وطلب منه ان يقابله ليحدثه عن الرفاعى اعتذر ، قال الصحفى انه سيعد سبع حلقات اذاعية عن الرفاعى ، لم يسمح باطلة عمر الحديث ، انما انهاه فى جفاء ، ماذا يريدون ان يفعلوا بالرفاعى ؟ حلقات اذاعية ؟ رواية ؟ قصة ؟ فيلم سينمائى ؟ هل يتسع احد هذه الأشياء للرفاعى ؟ لهذا العمر كله ، لو اتصل به احدهم مرة أخرى سيصيح فيه . يا لصوص كنوز المقابر . . اتركون واتركوا الرفاعى فى حاله . ، لا يود رؤ ية نابشى السيرة الفضوليون ، المتطفلون ، كأنهم يتحلقون به فى هذا الليل ، يخشى الليل الآن ، انه يلتمس المعذرة من الرفاعى ، لم يخلق من لا يخاف ، إنه لا يخشى عدوا معروفا ، إن مهاجمه لا يرصد ، لا تخترقه الرصاصات ، ولا يناله سن الخنجر ، فى قلب الانفجارات واللهب ظهر الجمعة التاسع عشر من اكتوبر انحنى بأذنه فوق الصدر العريض الذى احتوى البلد ومن فيها سنين طويلة ثم سكت من

أجلها بعد ان خفق وخفق لها ، عبثا حاول التقاط أى أشارة مرسلة من القلب ، الجسد سليم ، اليدان تلامسان الخصر ، كأنه سيقف بعد اغماضه عين ليرصد ، ويرقب ، ثم يعطى إشارة الهجوم ، غير أن الظهر احتوى الهلاك النحيل ، فى مستشفى النحاسين قال الأطباء ان الشظية نفذت الى القلب تماما ، سلكت طريقا ادق من مشرط الطبيب لو سدد الى مركز القلب ، قالوا انه لم يتألم ، فتساءل ، لكنه لماذا يضغط شفته بأسنانه ؟ اثناء عودته بالجثمان لم يبك ، عندما ظهر الطيران مدده ورقد فوقه ، يحمى الجثمان من خطر آخر محموم او شظية غشومة ، لامس وجهه جبهة الرفاعى وعينيه وذقنه الحليقة ، من ملامحه كانت تولد ابتسامة من قلب الموت كما تنمو الزهور فوق المقابر ، وعندما رآه عبد المؤمن بكاه صارخا . « كالقمر » وعندما عاد يحمله لم يدر ، هل يغلق عينيه ، ام يتركهما على حالهما ؟ لم يدر إلا شيئا واحدا ، أن يعود بالرفاعى ، لو ان الرفاعى سمح له بالتقدم بدلا منه لكان مستريحا الآن ، انه حزين من أجل نفسه ، الا يختار الموت الا هذه الطريقة الغامضة فى الهجوم عليه ؟ يكاد يدمع حزنا على ذاته المحاصرة ، على الفراق الطويل البطىء ، لا يرغب فى البقاء بالبيت ، لا يرغب فى النزول الى الشارع ، لا يود محادثة أحد ، إلى من يتكلم ؟ تتقطع الخيوط واحدة اثر اخرى فتعبث الامواج بالعمر ، لماذا لم تباغته النهاية فى لسان التمساح ، فى بلاعيم ، فى الطور ، فى جبل مريم ،

فى شلاطيم لو حدث لو جد من يرثيه ، ويحزن من أجله ، ويذكره ، ويعلق صورته فى بيته ، ويطلق اسمه على احدى العمليات ، لكن ها هو الفناء يراوغه ، يهدمه فى كل لحظة جزءا حتى يجهز عليه فى ضربة مباغتة ، بأى مكان يتحصن ، والى اى موقع يلجأ ؟ انه يمسح دمعا جرى ، اين الرفاعى ليشكو له ما جرى ، ليحدثه عن هذا الاحتضار الطويل الذى بدأ ، قد يستغرق ثوان ، وقد يطول إلى سنوات ، أين هو أين ؟

« ٣ »

« . . . إلى الصعيد وإلى الوجه البحرى والى المدن المحاذية للبحرين الأبيض والأحمر والى القرى المطلة على رمال الصحراء رحل ابو الفضل ، لم يستقر فى مكان ، ولم يأو الى بيوت ، ولم يهجع الى انسان . فوق الطرق الزراعية المرصوفة والمتربة نزل الليل عليه ، وقرب سمالوط هاش بعصا من جريد النخل على الكلاب عندما حاولت النيل منه ، ورأى اضواء مدينة ادفو والليل مقترب ، ومن الحقول شاهد مبانى الاسكندرية مضمدة بالمغيب والسحب ، تعلق بالقطارات الراحلة بين المدن والقرى ، وعبر النيل فى القوارب الصغيرة والمراكب الكبيرة ، وعمل حمالا مع جماعة ينقلون الأحمال ، وعاملا فى رصف الطرق ، وبوابا لوابور طحين ومعبئا لاكياس البصل ، دخل بعض القرى والمدن مع بدايات النهار ، وأوى إلى المساجد المفتوح فى قلب الليل ، ونزل ضيفا على كثيرين لازالوا يقدمون العون إلى الغريب فى ذلك الزمان ، فى قرية دراو بالقرب من اسوان سأله الفلاحون فى السوق بعد أن بدأ كلامه ، من هو الرفاعى ؟ فقال إنه من الناس الذين لا يجيئون مرتين فى الزمن الواحد ، جاء إلى الدنيا وقضى عددا من السنين محدودا ، وحمل البلد وهمومها فوق رأسه ، وحارب من أجل الناس ، الناس الذين يعرقهم ، والناس الذين لم يرهم ، والذين

مضوا ، والذين بقوا ، والذين لم يأتوا ، قال إنه الآن طائر من بين الناس ، وانه علا كا لصقر ولم يعد فوق الأرض إلى حين .

وفى الزقازيق حدث الناس فى مقهى كبير عن جلوس الرفاعى إلى الجنود وحديثه إليهم ، وحديثهم إليه ، وطلبه منهم ان يتحدثوا عن بلادهم وعن قراهم ، وعن الوان الزرع على مدار السنة ، وكيفية محاربة الآفات ، وزمن نضج المحصول ، وكل ما صار وما سيصير ، وفى كفر صقر قال لعمال محلج القطن إن الرفاعى لم يكف عن توجيه الاسئلة إلى الجنود ومنهم استوحى الخطط ، وأنه كان هادىء البال ، طويل النفس فى محاورة الصغير والكبير ، وحكى لهم ما جرى بالقرب من القناة يوما ، عندما قال ضابط احتياط من حملة المؤهلات أن مستقبله ضاع بسبب الجيش وانه كان مرشحا لبعثة إلى اوروبا ، فاشار الرفاعى إلى الشرق وسأله ، من يطرد هؤلاء ؟ ثم قال ، هل نستورد رجالا ليحاربوا لنا ؟ ثم قال ، لو تركنا العدو فلن يظل مكانه ، انما سيجىء لانه يطمع فى هذا الفول الأخضر ، ومد يده واقتلع عودا من النبات الأخضر ، سأله الرفاعى ، هل نمشى كلنا ونتركه يمضى إلى بيتك وبيتى واختك واختى ، قال الشاب ، لا . . قال الرفاعى ، انت قلتها لنفسك .

ومضى ابو الفضل إلى كفر صقر وإلى السنبلاوين ، وقال للفلاحين فى حقول الأرز المغمورة بالمياه أن الرفاعى كان هادئا وبسيطا ونفسه حلوة ولم

يتعالى على مخلوق ولم يجرح انسانا يلفظ ولم يخدش اذنا بكلمة ، وقال إنه كان قاسيا فيما يتعلق بالقتال ، يوقع الجزاء على الجندى ويضعه فى السجن ثم يستقصى أحواله من بعيد ليعرف اذا ما كان حبسه سيؤثر على نفسيته عند الخروج لملاقاة العدو ؟ ، وفى أحد الأيام زعق لاحدهم لأن زرار قميصه مقطوع ، قال ان من ينسى زرار القميص فأنه ينسى تركيب كبسولة التفجير ، هكذا يروح الجهد ويضيع .

فى قرية الغنايم قبلى لف ابو الفضل ، وفى البدارى تحدث الى الناس تحت سقف الليل ، وفى الحواتكة جلس على محطة السكك الحديدية ، وفى القطار طاف بركاب الدرجة الثالثة ، وفى جهينة قضى يوما بسوق الاثنين ، وفى مغاغة قضى يوما آخر بسوق الأربعاء ، حدث الخلق عن الخروج مع الرفاعى ، واحساسه الخفى بقرب ظهور العدو وامره بالتوقف عندئذ ، حدثهم عن انواع الضوء ، الأضواء الغامضة فى عمق الصحراء ، وكشافات الطائرات المقتربة من ممرات الهبوط ، وتلاقيها مع اصداء الاضواء الخافتة الصادرة من النجوم البعيدة ، ومشاعل العدو التى تصهر الليل ، الطلقات الكاشفة لمدفعية الهاون وارتفاعها المتمهل البطىء ، واللهب المنبعث من فوهة مدفع ميدانى ومشاعل الطائرات التى تعرى المدن والمواقع ، حدثهم عن انفجار القذائف ، عن نفاذ الرفاعى بين الشظية والشظية ، عن حضه لهم على مواجهة الموت وعدم الخوف منه

والسعى اليه لأنه ينال من يخاف ويباغت من يخشى ، حدثهم عن تقدم الرفاعى بطوله وعدم انحنائه لحظات الهجوم وعنف قبضته عند الالتحام ، وحدثهم عن لحظات المرح فى قلب مواقع العدو ، عندما اصروا على التقاط صورة فى عتمة الليل ، واصطفوا حول الرفاعى ، وبريق ضوء آلة التصوير ، قال علاء ان العدو سيرصد هذا الضوء ويحار فى تفسيره ، ربما ظنه سلاحا جديدا ، حدثهم عن مواجهة الليل مع الرفاعى ، والصمت حولهم لحظات الخطو الحذر الى العدو ، والغموض ، ومعرفة الرفاعى باوضاع الهجوم وقوله ان ما بيننا وبين العدو دماء كثيرة وان نصف جيشه لا يكفى للثأر لاحد رجالى ، وقوله انهم يجب ان يأخذوا من العدو احسن ما عنده ، لكن لا يعاملونه بنفس اسلوبه القذر ، فلا يهينون اسيرا حيا ، ولا يلغمون جثة ميت ، ولا يمثلون بجثة ، وعن قوله انه يجب تعدد الطرق التى يسلكونها الى العدو ، وان الطريق الذى يعبرون من خلاله لا يستخدم الا مرة ،

فى قنا أقام أبو الفضل ضريحا من الكلمات ومزارا لا يزار ، قال لمن قابلوه انه لا يبغى مكانا للمبيت فالمجموعة كانت بيته ، وآخر البيوت ، وانه لا يريد شيئا لانه نذر أيامه ليطرح فى كل بلد غرسا ، وليضع فى كل قلب مقدارا ، حدث الناس عن اقتفاء الرفاعى للأثر ، قال ان من علمه اقتفاء الأثر رجل عجوز من بدو سيوة تجاوز المائة ، كان يخلو الى الرفاعى

فقط ، ثم يأوى الى ركن ناء قريب من مكان نومه ، يضغط عمامته فوق رأسه ، يدخل يديه فى اكمام جلبابه الواسع ، ثم يطرق محملقا الى الأرض بثبات عجيب ، يبدو كأنه قادم من أيام منسية ، قيل انه علم الرفاعى كيف يقرأ الرمال ، وان يطلع على مكنون الصخر ، وان يعرف الـزمن الذى انقضى على مرور الانسان ، وماذا يحمل ؟ ومقدار ثقله ، علمه ان يعرف جنس الثعبان من شكل الخطوط ، وأين يختفى ثعبان الطريشة ، والى اين يتجه العقرب ؟

قال ابو الفضل انه فى يوم من أيام هذه الدنيا سيجىء من يمشى على قدميه من جديد فيقطع المسافة من المنبع الى المصب ، فيلملم ويجمع ، سينظر الرفاعى الى أضرحة أبو الفضل وشواهده التى أقامها فى كل البلاد ، فيذكره عندئذ بالخير ، وسيقول لنفسه ، شاء أحد رجالى الا يضيع دمنا هدرا . .

سيمشى الرفاعى فاردا طوله ومتطلعا الى الأمام ، واضعـا نفسه فى أكثر الاماكن تعرضا للخطر عندما يجىء الخطر ، سيمشى ليجادل هذا ويكاحر مع ذاك ليعود بحق ولـو ضئيل لاحـد الرجـال ، وليمضى الى الثكالى ، يخفف عنهم البلايا ، ويقضى الحوائج المنسية ، ويؤكد وعوده بالثأر للقلوب المجروحة بسبب رحيل الأحباب ، وليعلم الناس لغة العدو فيأمنون الخطر المباغت ، وليعرفوا ما سيفعل ، وما سيأتى بـه إلى الغد ،

ومن قبل ذلك يعلمهم لغتهم فيمحو أمية كل من خاصمه الزمن ، سيحمل البلد فوق رأسه ، سيقتفى آثار من ضلوا ليعود بهم ، سيسعى خلف كل من يهدده الفناء فى الصحراء . .

بالقرب من كفر الزيات قضى ليلته فى الحقول ، أصغى الى النباح والصرير وهمس النجوم ، مع بداية النهار حام حول مرسى المراكب النيلية ، حسم تردده ، تقدم من المعلم الذى يرتدى جلبابا بلديا واسع الأكمام . .

أحمل معكم الطوب . .

قال المعلم . .

العمل شاق

أومأ أبو الفضل ، قال المعلم :

كل مائة حجر بقرش . .

خلع جلبابه ، بعد لحظات بدأ يقطع المسافة الفاصلة بين الشاطىء والمركب الكبيرة فوق سقالة الخشب النحيلة ، فى الليل قال للمراكبية . .

أقضى الليل معكم . .

مد يديه ليتدفأ بالنار ، شم رائحة الحطب ، وتذكر المائدة التى جمعتهم يوما فى قلب ميدان الحسين والافطار الرمضانى عادة كل سنة ، وتذكر

ضحكات الود وحرارة الأيام ورفقة القتال ولحظة تواجده بعنبر النوم ثم مرور الرفاعى وطرقه باب العنبر قبل دخوله على الجنود ، وقوفه بينهم قبل التحرك الى الجبهة ، والتماس الراحة بعد العودة .

فى الصباح قال المراكبية لأبو الفضل . .

ابق معنا . . لا تفارقنا . .

قال انه سيجر معهم المركب فى المياه الشحيحة ، وسيرفع القلوع عند جفاف الرياح ، وسينشرها ويتعلق بها عند سخائها ، بعد الابحار ربط الحبل فى وسطه ومشى فوق الشاطىء المترب ، يصارع ثقل المركب ، يثبت قدميه فى الأرض ثم ينقلها ، وعلى الجانبين تمتد خضرة ، وتهتز فروع نبات ، وتترقرق أمواج .

زعق مصارعا الأرض والأمواج التى تحاول ان توثق حركة المركب ، ليصغى اليه الناس ، ولتسمعه الموجودات ، وليحدث آثارا لا تغنى فى اللون الأخضر ، ما بين الظل والشمس ، وفى الموضع الذى تشق فيه مقدمة القوارب النهر والبحر ، لكم قال الخبراء وعلماء البحر إن الرياح عتية والابحار مستحيل ، ولم يثن هذا الرفاعى ، من كل لحظة فى عمر هذه الدنيا سيجىء ، سيبدو للكل ، من رآهم ، ومن سيعمل معهم ، ومن سيلتقى بهم على غير اتفاق ، سيظهر فى الجهات الأربع الأصلية ، ويسرى

الى الكل ، عندئذ سيمضون اليه ، فواحد يحنو عليه ، يضمه ، وآخر برداء الحرب يظلله ، وآخر بالصمت ينظر الى وجهه ، وآخر فى الهجوم يفديه ، وآخر قبل الاقتحام يستأذنه ، وآخر بعد الجرح يلوذ بجانبه ، وآخر يقول نأيت عنا زمنا طويلا ولم نعتد منك البعد ، فيقول أبو الفضل عندئذ ، كان سكنه فى العمر ، وضريحه فى قلبى ..